د. أحمد
خالد
توفيق

فقاقيع

دار ليلى

Rewayat2

د. أحمد خالد توفيق

فقاقيع

الكتاب:
فقاقيع
التاليف:
د. أحمد خالد توفيق
رقم الإيداع:
2009/23247
• • •
التنفيذ الفني:
حسام سليمان
• • •
الإشراف العام:
أ. محمد سامي
• • •

دار ليلى
جمهورية مصر العربية
23 ش السودان- المهندسين
هاتف:
33370042
محمول:
0123885295
الموقع:
www.darlila.com
البريد الإلكتروني
mail@darlila.com

د. أحمد خالد توفيق

فقاقيع

قصص

دار ليلى للنشر والتوزيع

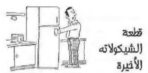

قطعة الشيكولاته الأخيرة

(ورقة الكرم الأخيرة) قصة قصيرة شهيرة ومؤثرة جدًا للأديب الأمريكي (أو. هنري)، وتحكي عن فتاة مصدورة مريضة ربطت موتها بسقوط آخر ورقة كرم من على غصن الشجرة خارج النافذة.. الحكاية أن الورقة لم تسقط قط. فيما بعد استردت عافيتها، فعرفتْ أن فنانًا مغمورًا يحبها رسم ورقة زائفة ليوهمها بأن الورقة موجودة وأن في حياتها بقية. ما أتكلم عنه اليوم أقل سموًا ورقيًا لكنه مؤلم بالقدر ذاته. منذ طفولتي يشتري أبي الفاكهة أو يهدينا أحدهم صندوقًا من الشيكولاته، وكنا نقوم بااللازم ونجهز على الفاكهة أو الشيكولاته بالكامل. فقط تبقى قطعة شيكولاته أو تفاحة أخيرة.. المهم يبقى شيء ما غير قابل

للتوزيع علينا. هذا الشيء الأخير يظل في الثلاجة بانتظار أن يظهر له زملاء قابلون للتقسيم. وفي صباح تعس يختفي من عالمنا نهائيًا.. أين ذهب؟.. لا أحد يعرف. وكبرت وصرت أبًا لكن السؤال السرمدي ما زال يحيرني: أين يذهب الشيء الأخير؟.. هناك من يأخذه لكن من؟.. لست أنا بالتأكيد. ولماذا لا أكون أنا ذلك المحظوظ؟

جاء الاختبار الأعظم في صورة صديق لي عاد من سويسرا، وجلب لي صندوقًا من الشيكولاته الفاخرة التي يذهب مذاقها بعقلك. أسرتي تتكون من أربعة أفراد.. لهذا منذ البداية عرفت أن عدد قطع الشيكولاته لن يكون من مضاعفات الأربعة أبدًا.. الحياة ليست بهذه البساطة.. ربما هي تسع قطع.. ربما ثلاث عشرة.. المهم أن تلك القطعة الأخيرة اللعينة سوف تظل موجودة في الثلاجة بانتظار مصيرها.. وهو ما حدث بالفعل..

زوجتي وأنا وابني المراهق وابنتي الطفلة مثل المتهمين في قصص أجاثا كريستي.. نتبادل النظرات الإجرامية ونحن نعرف أن أحدنا سوف يفعلها. من هو؟.. يمكن أن اطلب منهم الانتظار

لكن إلى متى؟.. ومتى يعود صديق ثان لي من سويسرا بصندوق شيكولاته؟

هكذا وضعنا القطعة في رف الثلاجة، وأقسمت لنفسي أنها ستكون لي. كنت أخدع وأنا طفل أحمق لأنني كنت طفلاً أحمق، فأي مبرر أقوله لنفسي اليوم؟. بالنسبة لابنتي أنا مطمئن لأن رف الثلاجة أعلى من متناول يدها، لكني قلق من أم الميال ومن الوغد المراهق الصغير.

في البداية لاحظت أن زوجتي تحوم حول الثلاجة أكثر من اللازم.. قلت لها بلا مناسبة واضحة إننا سننتظر حتى نبتاع بعض الشيكولاته ليمير عدد القطع قابلاً للقسمة على أربعة. بدا عليها الحرج وقالت بسرعة إنها لا تحب الشيكولاته أصلاً.

وجدت الولد يفتح الثلاجة ويقف أمامها وقتًا أطول من اللازم. سألته عن مشكلته فقال لي:

-"أريد شيئًا آكله.. أنا في مرحلة نمو كما تعلم"

كان رأيي أنه نما بما يكفي، ولو نما أكثر من هذا لتحول إلى ثور. ثم تناولته قطعة من الخبز ومثلثًا من الجبن، ووقفت

أحرس الثلاجة حتى تأكدت من أنه رحل. مشكلة تواجدهم الزائد حول الثلاجة – حتى لو لم يسرقوا قطعة الشيكولاته – هي أنهم لا يتيحون لي فرصة أن أسرقها أنا.

ظللت قلقًا طيلة الليل أتقلب في فراشي.. من حين لآخر أتأكد من أن زوجتي نائمة.. أريد أن أنهض لكن شعورًا بالخجل يمنعني. الأمر ليس بهذا التعقيد ولا يمكن أن تبلغ بي (الدناوة) هذه الدرجة. أنا رجل ناضج في العقد الخامس من العمر، وعندي مشاكل كبرى ولدي مهنتي.. من المستحيل أن أظل ساهرًا لأتسلل إلى المطبخ لأسرق قطعة شيكولاته.. في الماضي كان الزوج يتسلل إلى المطبخ لأن الخادمة الحسناء نائمة هناك، فيا لانحدار اهتمامات أزواج اليوم!

في النهاية انتصرت شهوة الشيكولاته علي، وقررت أن أفعلها مرة في حياتي.. قطعة الشيكولاته الأخيرة ستكون لي أنا لأول مرة في حياتي. خرجت إلى المطبخ في ظلام الصالة وقلبي يتواثب في الضلوع. اتجهت للمطبخ وفتحت الثلاجة.. مددت يدي إلى الرف..

ـنت لي.. لقد قالت الأقدار يومًا ما إنك لي!.. وأمسكت قطعة الشيكولاته.. هد فوجئت بأنها مجرد ورقة مصمصة ملفوفة على لا شيء!.. هناك وغد ما قد أكلها ولفها بإحكام لتبدو كأنها لم تُمس!.. من فعلها؟!.. لماذا تنام زوجتي بهذا العمق؟.. لماذا لم يصح ابني طيلة الليل؟

ن قصة (ورقة لكرم الأخيرة) تتكرر.. لكن صبرًا.. سوف أعرف الفاعل غدًا صباحًا عندما أعرف من في البيت يحب كتابات (أو. هنري)!!

سذاجتي

يتعامل المرء أحيانًا بسذاجة غير مقصودة قد تبدو للآخرين خبثًا. أذكر أنني أيام الكلية استعملت لفظة بذيئة جدًا أمام مجموعة من الفتيات، لأنني لم أكن أعرف معناها وحسبتها نوعًا من استعراض براعتي اللغوية. الظريف في الأمر أن وجوههن جميعًا احمرت وبعضهن صدمن، وهو ما يعني أن الآنسات الرقيقات كن جميعًا يعرفن تلك اللفظة! ذلك الموقف الذي وصفته ذات مرة بـ (ذئب وديع وسط مجموعة من الحملان الشرسة).

عندما عرفت شبكة الإنترنت لأول مرة، تصرفت بسذاجة واستعملتها للحصول على معلومات متخيلاً أن هذا هو الغرض من اختراعها، وفاتني أن الشباب حولوا الإنترنت إلى طريقة للحصول على الأغاني والأفلام والصور إلخ فقط صحيح أن المرء بدأ يتعلم

الاستخدام الصحيح للإنترنت. لكنه يتعلم ببطء طبعًا بحكم السن. تلقيت رسالة إلكترونيه من قارئ فضل استعمال الإنجليزية، فرددت عليه بلغة إنجليزية مورطة في عاميتها. لاحظت أن خطابه التالي كان باردًا جدًا إن لم يكن عدوانيًا. وفي نهاية الخطاب سألني في حزم: "ماذا تقصد بلفظة *Babe* التي ناديتني بها في خطابك بالضبط؟!". كنت أسمع العامية الأمريكية في أفلامهم فأجد أنهم يحففون لفظة *Baby* لينطقوها *Babe* وبدا لي هذا نوعًا من البلاغة المحببة، لكن كان علي أن أفهم فيما بعد أن *Babe* هذه كناية عن أية فتاة في المواقع الإباحية!. كل هذا بسبب رغبتي في استعراض براعتي اللغوية

موقف مماثل حدث مع صديق سافر إلى الخارج وأرسل لي قرصًا مدمجًا عليه مجموعة طريفة من الصور المتحركة *GIF*. كنت بصدد تصميم موقع لي فانتقيت صورة لعينين شيطانيتين ووضعتها في بداية الموقع. مر الأمر على خير إلى أن تلقيت أكثر من رسالة من قراء يقولون لي: "هو أنت من دول؟!" و"صباح الفل". فيما بعد عرفت أن صديقي الوغد نسخ صورة العينين هذه من واحد من أشهر وأهم مواقع البورنو على شبكة الإنترنت!.. لقد كانت هذه

الصورة علامة الموقع المميزة!. حاولت أن أزيل الصورة لكن وجدت أنني – كالعادة – نسيت كلمة السر التي تتيح لي عمل تغييرات في الموقع. هكذا ستبقى هذه الصورة للأبد تثبت لي أنني ساذج وتثبت للآخرين أنني نذب!

عندما جربت ذلك النشاط البشري المعروف بالـ (شات)، اتخذت اسمًا مستعارًا طبعًا، ودخلت غرف الحوار لأسمع ما يقولون. لاحظت أنني ساحر وجذاب فعلاً برغم إنني لم أفتح فمي، وأنني أتلقى اتصالات من أجمل مجموعة من الفتيات عرفتها في حياتي. فيم بعد وجدت أن الصور التي أرسلنها لي كانت جميعًا لممثلات أجنبيات شهيرات لا أعرفهن، ولهذا لسبب طلقت (الشات) نهائيًا باعتبار كل ما يُقال فيه كذبًا.. حتى كلمة (صباح الخير) قد تقال في منتصف الليل.

صحيح إنني ساذج، لكنني لم أبلغ بعد درجة السذاجة التي يحسبونني بها. عندما أفتح صندوق بريدي كل يوم لأجد ألف خطاب من أرملة زوجة زعيم أفريقي راحل. الزوجة الثكلى تقول إنها (ماجدا لامبو) أرملة الزعيم (أومبا لامبو) الرئيس السابق لجمهورية (كوكو لامبو) الذي – ويطلب له الرحمة –

اختلس 150 مليون دولار من مال الشعب وقام بإيداعها في مصرف كذا في جامايكا. المهمة سهلة جدا هي أن الأرملة بحاجة إلى من يسحب لها هذه النقود والتص بالنص. فقط هي توسمت في شخصي إنني نصاب أمين وإنني سوف أكون خير من يقوم بهذه المهمة. يا سلام! احتارتني أنا بالذات من بين كل سكن الكرة الأرضية لأنني أوحي بالثقة!.. أما المحظوظ الوحيد الذي سوف يظفر بـ 75 مليون دولار. ربما تسخر من الأمر لكن سذكر أن هناك أمريكيين صدقوا القصة وذهبوا إلى جاميكا فعلاً، وهناك تنتظر الأمريكي عصابة كاريبية ممتازة تعطيه علقة لها العجب، وتسرق ماله وجواز سفره وثيابه ثم تلقي به في الشارع عاريًا مفلسًا. لا اشعر بأية شفقة عليه وأرى أنه يستحق هذا.. ماذا ينقص هؤلاء كي يعلنوا أنهم نصابون؟ وبرغم هذا هو مصرّ.

إن الحديث عن السذاجة لا يتوقف؛ ويحتاج إلى عدة مجلدات، لكن المشكلة هي أن الجميع لا يصدق أنك ساذج إلى هذا الحد. إنما أنت تتخابث. كأنه يجب أن أسافر إلى جاميكا وأتلقى علقة من حرس الرئيس (أومبا لامبو) كي يصدقوا أنني ساذج فعلاً!

تفتفتي أزمنة اللاجدوى

عامة أحاول ألا أصادق أحدًا على الإطلاق لأن الحياة أقصر من تضييعها في العلاقات الاجتماعية. اليوم يزورك ابراهيم الشهدوي وزوجته وأطفاله الخمسة، ويقضي الأمسية كلها يحكي لك عن أمجاده ورئيسه الأحمق في العمل الذي لا يفهم أي شيء، بينما تنشغل زوجته في صفع هذا الولد القليل الأدب وضرب هذا وركل ذاك، وينشغل الأطفال في تحطيم كل شيء تحبه أو تعتز به في البيت، وزوجتك تبتسم مؤكدة أن.. كراش ش ش!.. هذا صوت شاشة التلفزيون التي قذفها أحدهم بمطفأة السجائر. زوجتك تؤكد أنه لا مشكلة وأنت كنت تتمنى من زمن أن يتحطم هذا التلفزيون. وفي النهاية يرحلون كالمغول تاركين خرابًا وأرضًا محروقة، وعليك أن ترد الزيارة. ونتيجة رد الزيارة أن يردوا الزيارة!..

لا.. لا يوجد شيء يستحق هذا كله..

لكنني إذا صادفت أحرص بشدة على ألا أصفق من يكتبون الشعر خاصة إذا كان رديئًا. لاحظت أن الشعراء المجيدين يبخلون بشعرهم كأنه الدر المكنون فلا يخرجونه إلا لمن يستحق وعندما تمس الحاجة له، بينما الشعراء الـ (تمص لعة) – كما يقول المصريون – لا يكفون عن الصرخ بالشعر في كل وقت وكل حين. أذكر واحدًا من هؤلاء كان يكرر قصيده بعينها فيها مقطع يقول: "سقطت ذبابة في الدورق . كان يردد هذا المقطع بلا توقف بينما اللعاب يتطاير من فمه والجنون في عينيه. الأسوأ أنه يصرخ في وجهك بعنف، حتى أن من يرى المشهد من بعيد يعتقد أنه يصرخ فيك وأنت عاجز عن الرد.

هناك دائمًا تلك الأجندة المكتنزة بالقصائد تحت إبطه. في أية لحظة يخرجها ليبدأ في الصراخ. تمر أنت بمرحلة الإصغاء فالابتسام فالاكتفاء فهز الرأس فإظهار الملل فالتذمر الصريح فالهلع ومحاولة الهروب، لكنه مصر على أن ينهي المعلقة.. وقد قلت مرارًا إنه لا شيء سوى الديناميت في الفم بقدر على جعل

الشاعر المتحمس يتوقف..

كل كلامه مفتعل بطريقة فظيعة. لا يقول (تصبحون على خير) وإنما (تصبحون على اكتمال). حتى أتمنى أن أسمع ما يقوله للبقال عندما يشتري جبنًا، أو عندما يشكو للسباك من انسداد بالوعة الحمام. مستحيل أن يتكلم بلغة العامة مثلنا.

أذكر أن أحدهم وقف ينشد لي الشعر في محطة القطار، وأنا أكرر استحساني بينما القطار يصفر منذرًا لآخر مرة. لو لم تركب فهي مشكلتك وعليك أن تمضي ليلتك هنا.. لكنه مستمر. مستمر. هكذا لم أجد بدًا من تركه بلا كلمة والركض للحاق بالقطار.

ثم تأتي لحظة الظروف!.. الظروف المكتنز المليء بالشعر الذي يعطيه لك، ويطلب رأيك فيه خلال يوم كأن الملحمة في الانتظار. تحمله عائدًا للبيت كأنك تحمل صحيفة ذنوبك.

أما العمل الأخطر فهو أن تحضر مهرجانًا شعريًا يؤمه هذا الطراز من الشعراء. عامة هناك نوعان من الشعر حاليًا.. شعر (أتدحرج عبر الطرقات الشتوية.. تخنقني أزمنة اللاجدوى..) وهذا النوع من الشعر لابد أن يظهر فيه دون كيشوت في لحظة ما.

هناك أكثر من (نهد) ومَقطع يحوي تجديفًا يقشعر له جسدك بشعوبه خصيصًا كي يثير غضب الجهات الدينية فتنشأ معركة على حرية الإبداع والرقابة على الضمائر.. الخ.. وهي معركة تنتهي ببيع كل نسخ الديوان على كل حال. لابد من كلمة (يا سيدتي) هنا وهناك لإضفاء لمسة نزار قبانية على الموضوع. النوع الثاني من الشعر السائد حاليًا هو (مات الذي قد كان نبراسا.. من بعده ساد الأسى الناسا).. سوف تسمع الكثير جدًا من هذا الكلام حتى ينفجر رأسك، ثم يظهر ناقد يمط شفته السفلى في قرف ويتكلم عن : "البنية الإبداعية الكوزموبوليتانية في إرهاصات ما بعد الحداثة. هذه هي الممارسة المنهجية القولية النقدية تكشف عن نفسها داخل الطرح البنيوي".

نعم.. إن الشعراء خطر داهم يمكن أن يدفعك للانتحار مـ لم تكن قد انتحرت فعلاً حتى هذه اللحظة. على أنني شعرت أن بوسعي أن أحبهم. عندما دعوت ثلاثة منهم إلى عزومة من (لحمة الرأس) في مطعم قريب، ورأيت كيف يلتهمون الطعام في نهم شعري وكيف يفرغون العظام من النخاع ويقذفون أصابع الممبار

ثلاثًا في أشداقهم. عندما عرفت أن الشاعرية الإبداعية الكوزموبوليتانية قد تغزو كل جزء في كيانك، لكنها تترك معدنك بشرية كما هي.

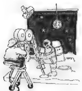

سيما.. سيما

قررت لفترة أن أتابع الأفلام العربية الحديثة التي تقدم على الفضائيات، على الأقل لأرى ما يراه أولادي طيلة اليوم. لسبب ما شعرت للحظة بأنني أرى الفيلم ذاته ألف مرة، فدائمًا هناك مجموعة من الشباب.. عادل يحب منى ومها تحب سمير ومنى تشعر أن مصطفى يحبها، لكنه في الحقيقة يحب مها، وسلوى تخدع مصطفى وتقنعه أن كوثر لا تحبه، بينما سمير يحب معتز. المهم أن هناك حشدًا من كل أنواع وألوان القبلة والعصات بحيث يضمن الفيلم ألا يفلت منه مشاهد واحد. ثم يظهر مطرب شبابي ما من مكان ما ليغني أغنية شبابية ما، بصوت رخيم مسروق.. يعني ليس صوته وإنما هو يصطنعه اصطناعًا. ويذهب الجميع إلى شرم الشيخ ليرقصوا بالمايوهات على الشط، ثم يظهر (حسن حسني) الممثل المصري الذي صار جزءًا من تقنيات السينما كالتصوير

والمونتاج والموسيقا التصويرية وحسن حسني، هناك لبيه الشرير الذي يريد تهريب المخدرات أو غسيل الأموال وهو غالبًا سامي لدله. رأيت ألف مرة إرهابيين سلفيين ملثمين ينوون اغتيال شخصية سياسية مهمة، ورأيت مليون مرة البطل يتعز قفزة جانبية واسعة ليطلق الرصاص بمسدسين نحونا وهو مستمر في السقوط بالسرعة البطيئة. لو كنت لا تعرف كيف تسقط بالسرعة البطيئة فأنت لا تصلح بطلاً لأفلام الأكشن. كما رأيت فريقًا من الرجال الأشداء يتقدمون صفًا بالعرض نحو الكاميرا، بذات السرعة البطيئة بينما انفجار مروع – بطن هو الآخر – يدوي خلفهم. ولا واحد منهم يلتفت للخلف لأنهم أشداء كما تعلم. من يرى هذه الأفلام يعتقد أننا نعيش في شيكاغو في عصر تحريم الخمور. لابد من قصيدة لأحمد فؤاد نجم ومظاهرة وحرق العلم الإسرائيلي.. هذه أشياء قد لا يكون لها أي دور في الفيلم لكنهم يطلقون عليها (التوابل السياسية). وكما قلت هي توابل لهذا لا يكثرون منها حتى لا يفسد طعم الطبخة.

فقط كدت أصاب بانهيار عصبي عندما عرفت أن هذا كله ليس فيلمًا واحدًا بل عدة أفلام. والأسوأ أن هذا كله استنساخ

للسينما الأمريكية حتى لقطة الرجال الذين يتقدمون صفًا بالسرعة البطيئة لبخروبو بيتك. هذه الأشياء فعلتها السينما الأمريكية وما زالت تفعلها، لكنها بالطبع فعلتها أولاً وفعلتها أفضل بحكم الإمكانيات.

عندما قدمت ساندرا نشأت فيلم (ملاكي إسكندرية) تفاءلت بهذه التقنيات الجديدة وألعاب الكاميرا، لأنها جددت بعض دماء السينما المصرية المتجمدة. المشكلة بعد هذه الأعوام أن الجميع قلد ساندرا نشأت إلى درجة أن الدماء الجديدة تجمدت بدورها!

في الماضي كان الموظف هو الذي يفرض السينما التي يريد أن يراها، لهذا كان بطل الفيلم موظفًا أو معلمًا أو محاسبًا. ثم بدأ نجم الحرفيين يسمو في مصر هكذا فرضوا السينما الخاصة بهم، وهي المرحلة التي اشتهرت بـ (سينما البدنجان)، ثم جاء الشباب من جمهور المولات الذي يريد أن يرى فيلمًا خفيفًا يناسبه هو وفتاته، وهو مستعد لدفع التذكرة الغالية نسبيًا. هكذا تكيفت صناعة السينما بالكامل لإرضاء هذا الشاب الذي يريد أن :

1- يرى بعض حكايات أصحابه في الكلية على الشاشة

2 - يرى عدة فتيات جميلات يلبس آخر موضه

3 - يسمع أغنية من ألبوم المطرب (شدي زيادي) الجديد

4- يرى عدة مطاردات وسيارات تنقلب وتحترق على سعل إخراج طافة للتخريب الدفينة فيه

5- بعض الحوار اللاذع (لروش) والنكات اللفظية

6- لا بأس بجزء سياسي يشعره بأنه ثائر وليس تافهًا إلى الحد الذي يعتقده أبوه.

وهكذا تحولت صناعة السينما المصرية بالكامل ويبدو أنها ستبقى كذلك لفترة طويلة جدًا. بعض الأفلام الجادة العميقة تخرج رأسها من الحجر من فترة لأخرى مثل (ملك وكتابة) و(شقة في مصر الجديدة) و(خالي من الكولسترول) و(بوابة الشمس)، لكن رأسها يقطع فورًا باعتبارها تجديفًا صريحًا.

وبما أن أولادي لا يكفون عن مشاهدة هذه الأفلام والاستمتاع بها للمرة الألف، فليس عندي تفسير سوى إنني صبي

أنجب عباقرة، أو عبقري أنجب أغبياء. الاحتمال المخيف أن نكون جميعًا أغبياء ونحن لا ندرك ذلك، ويكون العبقري الوحيد هو جاري الذي أقلع نهائيًا عن فتح جهاز التلفزيون. لا لم يبعه لأنه ما زال يجده مفيدًا كمنضدة يضع عليها النظارة والساعة عندما ينام!

كلي يا حبيبتي

نعم يا (رانية).. أعرف أنك تحبينني وأنك تعذبين، وأنك لا ترغبين في تذوق طعم الورد إلى أن نصير معًا للأبد، لكن لبدنك عليك حقًا، ولهذا أتيت بك إلى هذا المطعم الفاخر كي أطعمك قليلاً.. حتى تجري في عروقك القدرة على المزيد من الحب والحزن..

كُلي.. كُلي يا صغيرتي.. أمامي فنجان القهوة السوداء.. لا أريد سواها لأنها رخيصة.. لأنها أقرب إلى الاكتئاب الذي أمر به. إن الحياة من دون حبيبتي ليست حياة أصلاً.. لهذا أشرب القهوة السوداء كي تمزق معدتي وكي ترفع ضغط دمي إلى أن تنفجر شرايين مخي.

نعم.. التهمي السلاطات كلها.. ما شاء الله.. إن أكل

السلاطة بالشوكة لا يسمح للمرء سوى بالتقاط أقل القليل، لكنك تغرسين الشوكة فيفرغ الطبق.. خبز أيضًا؟.. هل تريدين بعض الماء كي يساعد على «البلع»؟.. تذكرت أشعب الطفيلي عندما كان مع ابنه في حفل زفاف وشرب الصبي كوب ماء فصفعه أبوه قائلاً: لو أنك اتخذت بدلاً من هذا الماء بضع لقيمات!.. قال الصبي: إن كوب الماء يفرغ مكانًا لمزيد من الطعام. هنا صفعه أشعب ثانية قائلاً: لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟!!

ها ها!.. لماذا تذكرت هذه القصة الآن؟.. لا أعرف.. اشربي الحساء يا صغيرتي الرقيقة المهذبة.. لا. لا داعي للشرب من الطبق مباشرة.. اشربي بالملعقة.

نعم يا رانية.. إن قصة حبنا خالدة ولن نموت، حتى لو كان أهلك لا يوافقون على شخصي لأنني فقير ولأنني ثقيل الظل ذو وجه عكر. تلتهمين المكرونة الآن.. أنا فعلاً معجب ببراعتك.. الشوكة لا تقدر إلا على حمل حفنة من أعواد المكرونة لكنك تنقلين بها نصف الطبق إلى فمك..

اشربي بعض الماء.. أنت تفرطين في وضع أحمر الشفاه

كأنك أكلت إنسانًا حيًا.. لا.. هذه صلصة المكرونة..! معجب أنا بطريقتك في تفسيخ لحم الدجاجة.. إن هي إلا لمسة واحدة وتحولت الدجاجة إلى أشلاء. لم أر أحدًا يفعل هذا سواك وسوى (أبو لهب) في فيلم (فجر الإسلام). جميل.. جميل. يسعدني أن أرى فمك الدقيق الصغير يمحو كل أثر للدجاج هنا..

المزيد من الكباب؟.. أنت تنقلين أصابع الكفتة إلى فمك برشاقة رائعة.. إصبع.. إصبعان.. ثلاثة.. لا.. هذا إصبعك أنت فلا تأكليه من فضلك.. أنا سعيد جدًا لأنك تأكلين.. سعيد لدرجة أنني سأطلب فنجان قهوة آخر..

ماذا كنا نقول؟.. آه.. الحب والحاجة إلى أن نكون معًا للأبد.. إن أباك رجل قاس وأمك... لا!.. لا داعي للعق الطبق بعد أن أكلت اللحم. أعرف أنه مبلل بالصلصة الشهية المتخلفة عن الشواء، لكن المنظر غير محبب.. أحب طريقتك الرشيقة في شرب المياه الغازية. ثم تتجشئين في رشاقة قبل أن تنتقلي لطبق آخر..

آه.. الجمبري.. في مصر يسمونه الجمبري وفي الخليج يسمونه روبيان.. لا مشكلة.. المهم أنه يحنمي من على ظهر

البسيطة بسرعة البرق. على فكرة.. عرفت صديقين درسا في أكبر معاهد السياحة والفنادق، وبرغم هذا يعجزان عن انتزاع لحم السمكة بضربة سكين واحدة كما تفعلين أنت!!.. أنت جميلة وبارعة حقًا..

بطيخ مع السمك؟ . للناس فيما يعشقون مذاهب.. حبات العنب مع البطيخ في شوكة واحدة ثم تغمسين هذا كله في الآيس كريم قبل أن ترفعيه لفمك . فكرة جميلة فذكريني بأن أجربها الأجمل أنك تتبعين هذا بإصبع من الكفتة!.. ثم كوب من الماء..

عندما نتزوج يا رائبة سوف أصحبك لهذا المطعم كل يوم فمن الواضح أنه يروق لك.. معجزة حقيقية أن تتمتعي بهذه الشهية وتحتفظي برشاقتك. تقولين إن هذه الشهية ليست من عاداتك لكنك سعيدة الليلة. أدعو الله ألا تمعي.. أ.. أن تسعدي للأبد ما دام هذا يجعلك تأكلين بشهية..

تريدين عود خلة؟.. هل ستأكلينه هو الآخر؟.. آه.. تريدين تنظيف أسنانك.. حسن.. سوف أحضر لك علبة كاملة.

كلام كثير يا رائبة أريد أن أقوله لك، لكنك تفضلين أن

ننتظر حتى تصل الحلوى.. ظننتها وصلت فعلاً!.. ليكن.. أنا فقط بحاجة إلى إجراء مكالمة مهمة ويجب أن أبحث عن هاتف هنا.

تقولين إن هاتفي الخلوي يطل من جيبي؟.. ربما كنت كذلك بحاجة إلى دخول الحمام.. المهم إنني مضطر للنهوض.. كلي واستمتعي بالحلوى إلى أن أعود.. إن تأخرت لا تقلقي.. سأعود بالتأكيد وحياة عينيك الجميلتين، وعندها نتكلم عن حياتنا معًا . عن اللحظة التي تصيرين فيها زوجتي وأكون مسئولاً عن طعامك وشرابك وملبسك..

,ن أباك رجل عظيم حقًا.. تقولين لي: ما هي المناسبة؟.. أقول إنه مجرد خاطر عابر.. لا تتحركي من مكانك. سأجري المكالمة وأدخل الحمام ثم أعود.....

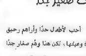

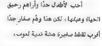

ملاك صغير جدًا

أحب الأطفال جدًا وأراهم رحيق الحياة وعبقها، لكن هذا وهُم صغار جدًا أقرب لقطط صغيرة هشة ندية لعوب،

فإن تحولوا إلى تلك الكائنات المرعبة ذات الأسنان الأمامية الناقصة والمركيروكروم على الركب، فإنني أكرههم كالطاعون.. هذه الكائنات المرعبة تمزق كتبك وتبعثر أوراقك وتخدش سيارتك بالمسامير وتقذف الطوب على رأسك، فإذا حاولت الانتقام قال المجتمع: "إياك أن تلمس هؤلاء الملائكة الصغار أيها السادي المنحرف!".

عندما تزوج (عصام) واختلى بعروسه (لمياء) في عش الزوجية لم يكن يعلم بهذا. كان قلبه يخفق كالطبل المجنون عندما قُرع باب البيت فاتجه ليفتحه. الواقف على الباب كان صبيًا في السابعة ينسكب شعره الأسود الفاحم على نصف وجهه،

وفي عينيه نظرة شقية لطيفة.

-"أنا (ميدو).. ابن الجيران.."

معلومات جميلة جدًا ولكنها كافية. هكذا أوشك عصام على غلق الباب، لولا أن (لياء) هرعت ترحب بالطفل الجميل عاملة أن هذا من تقاليد الأنوثة. أدخلته وقدمت له بعض الحلوى وراحت تثرثر معه وتقبله، ثم فتحت جهاز التلفزيون لتشاهد (سبيس تونز) معها. ظل عصام يروح ويجيء في الشقة منتظرًا أن ينتهي كل هذا الهراء.. لكن ميدو الملاك الصغير جائع.. قامت لتسخن له بعض الطعام فأكل وشبع، ثم استلقى على الأريكة وغاب في نعاس عميق. أوشك عصام على حمله لرميه خارج الشقة، لكنها صاحت في جزع

-"سوف توقظه!!"

وحملت الشيطان الصغير إلى فراش الزوجية ونزعت حذائيه ثم غطته بشرشف خفيف. وتركته لينام براحته.. حاول عصام إقناعها أكثر من مرة بأن أسرة الصبي – حتمًا – قلقة عليه. لكنها أخرسته بنظرة حازمة تقول بوضوح: يبدو أنك لست الرجل الذي ظننته.. الرجل الذي يعامل هذا الملاك الصغير

بقسوة لا يؤتمن على زوجة رقيقة مثلي".

ثلاث ساعات والوغد الصغير نائم، مما يدل على أنه بلا أهل، أو أن أهله سعداء للتخلص منه. في النهاية استيقظ من النوم فجلس في الصالة يشاهد (سبيس تونز) بينما هرعت (لمياء) تعد له بعض عصير الفاكهة. في النهاية وقد انتهى عصيم تماماً وصار يفتح عينيه بمعجزة، أعلن ميدو أنه سيموت حتى لا تتلقى عليه ماما.. ووعدهما بأن يزورهما كثيراً جداً..

بدأ الأمر يدخل دائرة الخطر عندما فتح عصام الباب في الصباح في صباح اليوم التالي، وهو منكوش الشعر حافي القدمين، ليجد ميدو يسأل عن طانط (لمياء). وسرعان ما كان يقتحم الشقة ويهرع إلى غرفة النوم ليوقظ العروس النائمة. لقد صار الشقي في الشقة حقاً مكتسباً له لأنه ملاك صغير كما تعلم.

في موعد الغداء أعدت لمياء بعض دبابيس الدجاج القلية.. هنا دق جرس الباب ودخل ميدو وفي يده إصبعان من الكفتة وفي اليد الأخرى عود خشبي غرست فيه قطع من (الشيش طاووق). سأل عما يأكلان فأصرت لمياء على أن تدس في يده بعض دبابيس

الدجج. وهكذ غادر الشقة راضيًا وقد نسف غداء العروسين تمامًا فلم يبق لديهما ما يأكلانه إلا السلاطة. وفوجئ عصم به يصعد الدرج قصدًا شقة أخرى!. إذن هذا الشيطان الصغير يمر على شقق البناية ليجمع اللحم من كل شقة!.. هو لا يضيع وقته في جمع الفاكهة أو الأرز بل هدفه محدد وواضح.. النتيجة أن البناية كلها صارت تعج بالجياع!

بعد ساعتين عاد الصبي لينام على الأريكة ثلاث ساعات كاملة. على الأقل في هذه المرة جاءت أمه وهنأت العريسين، وقالت إن ميدو يحبهما جدًا لكنها تشعر ببعض الخجل لأنه يضايقهما. قالت لياء إنه لا شيء يسعدها مثل رؤيته.. هكذا صاحت السيدة في مرح:

-"وهو لا شيء يسعده أكثر من هنا!.. فلتبق معهما يا ميدو ولكن لا تتأخر عن العاشرة مساء!"

وتركته.. وعندما بدأ يصرخ طالبًا لعبة أصرت لياء على أن يأخذه عصام إلى السوبر ماركت ليبتاع ما يريد لأنه ملاك صغير. هكذا نزل عصام معه وهو يسب ويلعن في سره، وهنا شعر بأن

الصبي لا يختار لعبة وإنما هو يقوم بتعبئة جوال بطاطس في حقل.. إنه ينتقي ألعابًا لا يريدها ولا تهمه في شيء فقط لتكون عنده، ولربما كي يحرم صاحب السوبر ماركت منها!

هكذا تحولت حياة عصام إلى جحيم بسبب ميدو الموجود في كل زمان وكل مكان.. هذا الصبي أكبر من الواقع.. أكبر من الحياة ذاتها.. إنه كابوس..

وكيف انتهت القصة؟.. بما أننا نعرف أنها لن تنتهي إلا بالطلاق أو الانتحار أو قتل الملاك الصغير، وبما أن هذا المقال يفترض أنه فكاهي، فإنني سأنهي القصة عند هذا الحد وأترك تصور النهاية لخيالك الخاص!

الشفرة الغذائية

عندما تلقيت الدعوة على الإفطار في رمضان من ذلك المندى على الإنترنت، قبلت على الفور ومن دون تفكير.. لا يجب أن ينتظر المرء ليفكر عندما يتعلق الأمر بالطعام المجاني. وهناك مثل صعيدي لا أذكر نصه يقول: "لا أحد يموت من الأكل.. من يمت يمت جوعًا!". صحيح أنني سأسافر من مدينتي إلى القاهرة، ويكون علي أن أعود بعد الإفطار بمعدة ممتلئة وجسد متثاقل، وحجاب حاجز مرتفع، ومخ تدنى الأكسجين الواصل له، لكني قلت إن الأكل يأتي أولاً وبعد هذا نفكر.

هكذا أرسلت موافقتي..

بعد يومين كان هناك حادث سياسي جلل تكلمت عنه الصحف، فدخلت ذلك المنتدى لأعرف رأي الشباب وما يقولون . هنا وجدت هذه السطور الرهيبة:

"الدمار الدمر: حساء ودجاج بانيه. رجل المستحيل: مكرونة ولحم مسلوق. فتاة الغد: مكرونة وحساء ودجاج بانيه.."

وهكذا على امتداد ثلاث صفحات كاملة.. وقد أصابني الرعب لأنني افترضت أن هذه شفرة مهمة، ويبدو أن شباب هذا المنتدى قرروا أن يقوموا بعمليات على أعلى درجة من الخطورة .

إن الشفرات المتعلقة بالأكل شهيرة جدًا في العالم العربي.. أذكر أن شفرة التحذير من هجوم من ناحية إسرائيل في حرب 1967 كانت (عنب.. عنب.. عنب).. وهي الإشارة التي أرسلها الشهيد (عبد المنعم رياض) فجر يوم 5 يونيو فلم يتلقها أحد أو تلقوها وحسبوا أنه رجل يشتهي العنب، أو أنه يتغنا بأغنية سعد الصغير التي سيغنيها بعد هذا بأربعين عامًا (العنب.. العنب)..

أذكر كذلك الشفرة التي سمعتها من إذاعة فتح وتقول.

"الويسكي في طريق . واصلوا الرقص.. الله معكم!".. طبعًا معناها هو (الذخيرة قادمة . استمروا في المقاومة.. الله معكم)..

هناك شفرة شهيرة جدًا هي (السنجة في الرنجة) وتعني القتل الفوري، وقد استعملت في أحد أفلام فؤاد المهندس، واشتهرت مع شفرات أخرى غير غذائية مثل (الفئة في الفئلة) و(الحلبية في الثعلبية).. و(القزازة في البزازة)..

المهم أن الذعر أصابني ورحت أتخيل ما قد تعنيه (مكرونة ودجاج بانيه) هذه، وهل عسى أن أسحبهم بالتروي أم لا؟ . ثم فوجئت باسمي وأمامه العبارة الرهيبة (مكرونة ودجاج مشوي).. يا نهار اسود!!

هنا فهمت. إنهم يحصرون من ينوي أن يأكله كل واحد من ضيوف الإفطار، وهو نشاط محمود، لكن لا أفهم أن يأخذ كل هذه المساحة على الإنترنت.. دعك من أنني ريفي أعتبر الأكل من الأسرار الحميمة، لهذا لا أفهم أن يذاع على الملأ ليقرأه كل من يقرأ العروبية على ظهر الكوكب. نفس المنطق الذي يجعلني

عاجزًا عن فهم إعلانات الزواج التي تخبر الجميع أن فلانة ستنام في فراش فلان هذه الليلة!

تمنيت لو استطعت رفع اسمي من هذه القائمة «الرهيبة».. لكن الأوان قد فات على كل حال..

وفي اليوم الموعود ذهبت إلى الإفطار.. جلست إلى المائدة خافض الرأس كاسف البال، هنا وجدت أنهم وضعوا أمام كل منا طبقًا فيه أرز وربع دجاجة مع برام خضر لكل ثلاثة.. لم أفهم السبب لكنهم قالوا لي إنهم وحدوا وجبة الطعام منعًا لحدوث ارتباك..

إذن ما لزوم حملة التشهير هذه على «الإنترنت»؟..

تناولنا الإفطار والحمد لله أنني لم أشبع بما يكفي.. هؤلاء القوم لا يملكون فكرة عن شهيتي، فهذا الذي أكلته هو أقرب إلى التمر الذي أغير ريقي به بعد الصيام.. هكذا وجدت في نفسي القوة والعافية اللتين تسمحان لي بالسفر عائدًا إلى مدينتي. سألوني عما يدعوني إلى الإسراع فقلت في جدية: "أريد أن أتناول الإفطار.. أنا جائع!"

وما زالت تلك الصفحات موجودة على الإنترنت بعد

هاميى، تعلن بوضوح أننا مجموعة من الشرهين الذين اجتمعوا ذات يوم في رمضان لالتهام الدجاج والأرز والمكرونة واللحم. هذا بالطبع إلى أن تشك المخابرات المركزية الأمريكية في أن هذه الصفحة تحتوي شفرة غامضة رهيبة، وترسلنا جميعًا إلى جوانتانامو!

كلب عجوز وحيلة جديدة

كان من سوء حظي أنني تعلمت قيادة السيارات على كبر، وفعلت هذا مضطرًا لأنهم قالوا لي إن لطبيب يجب أن يملك سيارة. كنت أعتقد أن الطبيب هو الذي يكشف على المريض ويكتب له العلاج وليس سيارته، لكنهم أكدوا لي أنني أحمق كالعادة

هكذا اضطررت آسفًا لشراء سيارة.. واضطررت آسفًا لتعلم القيادة. الرجل الذي تولى مهمة تعليمي قاد السيارة إلى منطقة نائية قرب الحقول، ثم ترجل وطلب مني أن أحتل مقعد القيادة. وقال بلهجة تقريرية:

-"دس على البنزين والدبرياج معًا ثم عشق السرعة الأولى، وارفع قدمك ببطء عن الدبرياج، وزد البنزين، ثم انتقل للسرعه الثنية.. هيا!"

كن هذا جميل، لكني لا أعرف ما هي السرعة الأولى ولا الثانية ولا أعرف ما هو (الديبرياج).. هذا الأحمق يعتقد أنه يكلم (مايكل شوماخر). ولو كنت بهذه البراعة فلمَ طلبتك أصلاً؟..

في النهاية تحركت العربة فراح يطلق التهليل ويمتدح براعتي المذهلة.. إنني أقود السيارة كما تسبح السمكة في النهر.. كما يحلق العصفور في سماء صافية.. كما..

ثم أدرك أننا لا نتقدم.. وبرعب لاحظ أننا نرجع للخلف.. اكتمل رعبه عندما أدرك أن ما يوجد بالخلف هو ترعة كبيرة عميقة..!

فجأة راح يصرخ في هستيريا:

-"دس الفرملة!.. لا تضغط البنزين!.. شد فرملة اليد!.. توقااااف!"

شرحت له في هدوء ونحن نواصل رحلة الغرق ماشين للخلف أنني لا أعرف مكان الفرملة، ولا أعرف أين فرملة اليد هذه.

كان قد عاد لصوابه فشد فرملة اليد في اللحظة الأخيرة، ثم سقط مغشياً عليه لبعض دقائق. لا أعرف سبب توتره لهذا الحد.

المفترض أنه محترف..

على كل حال واصلت الدروس معه، وجاء اليوم الذي قال لي فيه بوجه شاحب غارق بالعرق إنني صرت مؤهلاً لأمشي في الطرقات وحدي، وودعني وأطلق ساقيه للريح.. لا أذكر أن شعر رأسه كان أبيض عندما بدأنا الدروس لكني أرجح أنه كان يصبغه وكف عن ذلك..

هكذا قررت أن أبدأ وحدي تجربة القيادة.. ركبت السيارة وانطلقت..

لاحظت أن هناك صفاً طويلاً من السائقين العصبيين يمشون خلفي ولا يكفون عن إطلاق آلة التنبيه.. ماذا أصاب الناس ليصبروا بهذه الوقاحة؟.. كنت أعتقد أن السير بالسيارة يعتمد على استعمال السرعة الأولى فقط، أما السرعات الباقية فهي هنا من أجل الشيب الرقيع الذي يسبب الحوادث على الطرقات. كانت النتيجة هي أن السيارة ارتفعت حرارتها لدرجة غير مسبوقة وبدأ الدخان الأبيض يتصاعد من الرادياتور بلا توقف. اضطررت للتوقف في شارع ضيق مما أرغم 36632623 سيارة على

التوقف في صف خلفي. لسبب ما راح كل واحد يبرز من سيارته ويشد شعره ويلوح بقبضته.. الناس لم تعد مهذبة كما يبدو.

انتهت مرحلة التعلم وبدأت مرحلة التركيز في القيادة.. كلما قابلت صديقًا قال إنه لوح لي أمس لكنني لم أكن أرى ولا أسمع لأنني كنت منهمكًا في القيادة. لسبب ما يعتقد هؤلاء أن علي أن أقود السيارة فلا أنظر أمامي أبدًا. بل ألتفت يمينًا ويسارًا بلا انقطاع بحثًا عن أصدقائي المتناثرين على جانبي الطريق. ذات مرة لوح لي أحدهم وهو يقف على جانب الطريق فملت مباشرة لأقف أمامه وأنا ألوح بذراعي.. سمعت صوت حديد يتحطم وصوت فرامل تئن.. نظرت للخلف فوجدت نحو خمس سيارات قد اصطدمت ببعضها والسبب هو أن الأحمق الذي يقود السيارة خلفي توقف فجأة. لماذا يقود الناس السيارات إذا لم يكونوا يجيدون هذا؟.. هكذا أركبت صديقي وانطلقنا تاركين خمسة سائقين يتبادلون السباب واللكمات..

أثناء انطلاقي بالسيارة سألت صديقي عن سبب شجار هؤلاء، فقال لي بلهجة غامضة: "هناك مثل إنجليزي يقول: أنت

لا تستطيع تعليم كلب عجوز حيلة جديدة!"

لم أفهم علاقة هذا بسؤالي.. لم أر كلبًا عجوزًا في مكان الحادث . يبدو أن الجميع قد فقدوا عقولهم ألا ترى هذا معي؟.

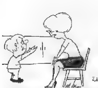

نيولوجيزم

النيولوجيزم أو اللغة الجديدة ظاهرة ضايقت الآباء والمعلمين على مدار التاريخ، وفي كل مرة تنتصر لتولد مصطلحات جديدة تماماً، ثم يصير مستعملو هذه اللغة الجديدة آباء ومعلمين يصيبهم الجنون عندما يستعمل أبناؤهم لغة جديدة!

في مراهقتي ظهرت في العامية المصرية لفظتان هما (سكة) – بفتح السين – ومعناها (الشيء الردئ عديم القيمة) و(ماشي) ومعناها يشبه OK.. وهما كلمتان معقولتان جداً لكن أبي كان يوشك على الإصابة بالفالج كلما استعملتهما، وقد قال لي ذات مرة:

-"هنا بيت محترم فإذا أردت استعمال لغتك هذه فلتذهب لبيت آخر!"

لم تكن مدام (عفيفي) تعرف شيئًا من هذا عندما دهمت المكتبة المجاورة لدارها وهي شبه منهارة لأن ابنيها المراهقين يتحدثان بلغة هي مزيج من السنسكريتية والفنلندية، وقد فهم الرجل الخبير مشكلتها على الفور وأعطاها قاموسًا صغيرًا كتبه أحد الشباب اسمه (قاموس روش طحن).. وقد تصفحت المرأة صفحاته فأصابها الهلع.. لشد ما تغيرت لغة الشباب وصارت لهم مصطلحات خاصة بهم لا يمكن فهمها.

استيقظ ابنها الأكبر طالب الثانوي من النوم فقال لها:

-"أنا زهقت من لاننخة العوق دي.. فين الاصطباحة؟"

تصفحت القاموس بسرعة فكادت ترى شريط ترجمة يرتسم على صدره كتب عليه: "لقد سئمت هذا الجلوس الممل في البيت.. أين الإفطار؟" أعدت له الإفطار مسرعة فظهر أخوه طالب الجامعة، وراح يأكل وهو يقول له: " الواد شريف حلق لي امبارح.. الواد ده شحاف وبونتي"

فقال أخوه في لا مبالاة: "كله في الأمبلايظ.. أدي له سلك يا مان.. "

أمبلايط؟. أية كارثة!.. راحت تتصفح القاموس بسرعة حتى فهمت ما يُقال. الأول يقول لأخيه إن الولد (شريف) مدع ولا يفهم شيئًا وقد عامله بوقاحة وتجاهله أمس.. فيرد الأخ أنه لا شيء بهم.. يمكنهما تسوية الأمر بمكالمة هاتفية..

انتهى الغداء فنهض الابن الأكبر ليسأني: " إيه النظام.. أبجيني يا ماما "

بمراجعة القاموس عرفت أنه يسأل عن نقود لأنه سيخرج.. وكان القاموس يحتم أن ترد عليه بـ (النظام ستسم).. أي أنها لن تعطيه مليمًا..

بدأت تتعلم هذه المصطلحات ووجدت أن اللعبة مسلية خاصة أنهما يتكلمان غير عالمين أنها تتابع ما يقولان.

كانت جالسة مع الأب على مائدة الغداء، عندما سمعت أحد الولدين يتكلم من غرفة النوم:

-"انت قاطع وسك وراميها في حجري!"

فيرد الآخر:

-"وأنت معك فأر مولع؟"

لم يفهم الأب حرفًا وبدت عليه الرعب، فقالت له في هدوء وهي تتصفح القاموس:

-"الأول يتهم الآخر بأنه يتنصت على كل شيء بقوله، يبثف. الآخر يتهمه بأنه يدخن لفافة تبغ.. الفأر المولع معناه لفافة تبغ.."

ابتسم الأب وقد استراح لأنه فهم، ثم استوعب معنى هذا الكلام واحتقن وجهه.. لفافة تبغ في البيت!.. كان يتوقع هذا.. ابنه طالب الجامعة يدخن إذن!

قام بالإجراء التربوي المعتمد بأن نزع شبشبه وحمله في يده وتواثب نحو غرفة نوم الولدين ليعيد العدالة إلى مجراها، وفتح الباب بقوة..

هنا رأى أول ما رأى فأرًا مشتعلاً يجري فوق الفراش ليتوارى تحته، ثم رأى أذنًا مقطوعة على الأرض!!

في المستشفى رقد الولدان في الفراش غارقين في الضمادات،

وقال أكبرهما للأب والأم:

-"لقد شرحنا لكما الموقف بدقة لغوية تامة لكنكما لم تفهما!"

قالت الأم:

-"مشكلة الديالوجيزم أنك تفترض أن كل كلمة لها معنى آخر بعيد، وهو ما يعني أننا في مأزق حقيقي!"

سوف يستمر هذا الأرق لسنوات عديدة، إلى أن تولد كلمات جديدة، وتصير كلمة (أمبلايظ) كلمة عتيقة جداً بالنسبة لشباب الغد، وربما حسبها بعضهم قادمة من معلقات إمرئ القيس أو عنترة بن شداد.. عندها سوف يفهم الوالدان ما تشعر به الآن!

هيافة

لقد كبر

أولادي.. ما شاء الله..

هذا يسرني بالتأكيد

لكنه يحرمني حقي في ممارسة بعض ما اصطلح الناس على أنه (هيافة).. ولهذا قصة يطول شرحها.

الهيافة هي مصطلح عمي معناه (التفاهة) مع شيء من الخرق وانعدام المسئولية وتضييع الوقت فيما لا طائل من ورائه.. مع لسة سخف لابد منها طبعًا..

يجب أن أعترف هنا اعترافًا خطرًا هو إنني أحب قراءة مجلة (ميكي) جدًا.. هذا التدفق الفني الجميل بريشة أعظم فناني العصر مع ذلك العالم الساحر البسيط.. عالم من البط والكلاب والفئران وكل بيت يبنيه صاحبه بنفسه، وأمامه سيارة مضحكة

وصندوق بريد خرب، والمليونير العجوز الذي يقضي الوقت في عد المال، والبطة العصبية المغرورة الظريفة معدومة المواهب.. الخ..

أعشق هذا العالم الساحر بشدة، وكنت أتابعه بشغف حتى أنهيت الجامعة، فبدا منظري غريبًا جدًا وأنا أبتاع هذه المجلة من بائع الصحف العجوز المتشكك عم (مأمون)، خاصة وهو لا يكف عن ترديد لفظة (يا دكتور) لا يقصد بها احترامي بل توبيخي طبعًا..

لو أنك رأيتني وأنا أبتاع المجلة وأنظر حولي في حذر، لظننت أنني لا أبتاع مجلة أطفال ولكن جرعتي اليومية من الهيروويين أو الكوكايين.. قد أملك بعض (الهياف) لكني بالتأكيد لا أرغب أن يعرف الناس جميعًا بذلك. ثمة حل معقول هو أن أفعل ما أريد ولا أبالي بالناس.. لكن السجون على قدر علمي تعج بهؤلاء الذين فعلوا ما أرادوا ولم يبالوا بأحد..

هكذا توقفت عن شراء المجلة لفترة طويلة جدًا إلى أن عرفت الحل السري : تزوجت وأنجبت.. !.. الآن صار عندي طفل جميل لابد من تثقيفه وإمتاعه.. هكذا عدت إلى بائع الصحف

العجوز العم مأمون لأفف في فخر وكبرياء وأقول :

-"هات مجلة ميكي لمحمد ابني.."

فيقول في رضا وطيبة :

-"بارك الله لك فيه"

الآن لم أعد مصاباً بالهيفاء وإنما أنا مجرد أب مخلص..

أمسك بالمجلة في تعالٍ وكبرياء ولسان حالي يقول: "كيف يقرءون هذه الأشياء التافهة؟".. ثم أعود لداري وأنا موشك على التحلق طرباً وأتشمم غلاف المجلة الصقيل عطر الرائحة. ما أجملها!.. يجب أن يعبئوا رائحة الأغلفة هذه في زجاجات..

في البيت تنظر لي زوجتي في شك وهي مستعدة في أية لحظة كي تتهمني بالهيافة لو اكتشفت أنني أقرأ هذه المجلة. لذا أضغط على أعصابي حتى المساء ثم أضع الطفل في فراشه وأقرأ له القصص الموجودة فيها تباعاً.. صحيح أنه ينام بعد صفحتين لكني أب متفانٍ واصل قراءة المجلة له حتى آخر صفحة..

لا يقتصر الأمر كما ترى على قراءة مجلة ميكي. مثلاً لم

بعد مما يليق بي أن ألعب مباراة كرة أمام البيت، لكنك تستطيع ذلك لو صرت أبًا حنونًا يلعب مع ابنه.. سفي لا تسمح بدخول السينما أسبوعيًا لكني أب طيب مصمم على تسلية ابنه.

أما عن الحلوى والبطاطس المقلية وكل تلك الأشياء اللذيذة المذاق الموضوعة في أكياس (نشخشخ)، والتي يصر الكبار على أنها سمة، لكنها لم تكن موجودة في طفولتي وقد صار تذوقها مزاجًا حقيقيًا.. فقد ابتاعها لابني ثم ألتهم منها لكثير لأتأكد من أنها لن تضر صحته..

أنا أب متفان حقًا.. إن آباء كثيرين يحسدونني على سعة الصدر التي أملكها مع ابني..

كبر ابني ولم يعد يهتم بهذه الأشياء، وكلما اقترحت عليه أن يقرأ مجلة ميكي هز كتفيه في اشمئزاز وقال:

-"أنا لم أعد طفلاً!"

هكذا وجدت أن الوغد تسبب في حرماني من قراءة المجلة لمدة عامين، خاصة وأمه تعرف جيدًا أنه لا يحب القراءة أصلاً.. دعك من أنه الطفل الوحيد الذي يمقت الحلوى والبطاطس المقلية

وكل تلك الأشياء لذيذة المذاق الموضوعة في أكياس (تشخشخ). لقد دمر حياتي ومستقبلي لذا وجدت أن الحل الوحيد هو أن أنجب ثانية..

الآن تراني أبتاع مجلة ميكي معللًا أنني أبتاعها من أجل مريم ابنتي.. من ثم يدعو لي عم (مأمون).. أبتاع حمولة كاملة من البطاطس المقلية والحلوى، وأذهب لنسينما أسبوعيًا وألعب الكرة حيثما أردت لأنني أفعل هذا لمريم!..

أمس قالت لي مريم إنها لا تحب مجلة ميكي وإنه لا داعي لشرائها. احمرت عيناي غيظاً وزمجرت ثم اتهمتها بالغباء والسطحية والجهل.. سوف تقرئين مجلة ميكي سواء أردت أو لم تريدي لست مستعدًا لأن أنجب طفلاً كلما أردت قراءة هذه المجلة. وإلا لوجدت نفسي مثل رمسيس الثاني الذي رزق بـ 99 ابنًا.. لابد أن رمسيس الثاني كان يعاني بعض (الهيافة) ويحب قراءة مجلة أطفال فرعونية تطبع على برديات.

هناك حل ثوري آخر هو أن أجد لنفسي وكرًا سريًا في أحد أزقة المدينة القذرة، حيث أستطيع أن أختلي بنفسي وأمارس

الهيافة كما أريد، وهذا الوكر سوف أملؤه بمجلات ميكي وأكياس البطاطس حيث آكل وأقرأ إلى أن أفقد صوابي تمامًا.. لكنه حل خطر لو عرفت به زوجتي.. ألا ترى هذا معي؟

هكذا قالوا

من جديد أعود إلى تلك الرسائل الذكية التي يصلني بعضها عبر البريد الإلكتروني. ومعظم ما يأتي من هذا الطريق كلام فارغ كما تعرف. هناك مليون رسالة تعد بخراب بيتك لو لم تمررها لآخرين، ومليون رسالة من أرملة زعيم أفريقي تدعوك لمساعدتها على صرف مبلغ مليار دولار من مصرف في جامايكا.. لكنني وجدت هذه الرسالة الذكية التي تحمل شكل تعليمات يوجهها رجل غربي – قرر أن يكون رجلاً – لزوجته الغالية. زوجتي تساءلت عن سبب اهتمامي برسالة كهذه فقلت لها: "أحب أن أعرف عيوب المرأة الغربية ولماذا فشلت في أن تكون رائعة مثل نسائنا الشرقيات". قبلت زوجتي هذا التفسير بكثير من الشك، فلو رأت هذا المقال لكانت نهايتي إذن..

التعليمات التي يوجهها الزوج لزوجته تقول:

1. التسوق ليس رياضة.. وليس هناك رجل على استعداد لأن يتعامل معه كرياضة.. أبدًا..

2. البكاء نوع من الابتزاز..

3. قولي ما تريدين مباشرة.. ولنكن واضحين: التلميحات الخفيفة لا تجدي.. التلميحات القوية لا تجدي.. التلميحات الواضحة كالشمس لا تجدي!.. قولي ما تريدين ببساطة!

4. هاتي مشكلتك لنا فقط لو كنت تريدين حلها.. هذا ما نقدر على عمله.. لتعاطف مهمة صديقتك وليس مهمتنا!

5. الصداع الذي يدوم 17 شهرًا مشكلة خطيرة.. فلتذهبي لطبيب بدلاً من الشكوى..

6. أي شيء قلته منذ 6 أشهر غير مقبول استعماله في أية مناقشة.. في الواقع أي تعليق يصير لاغيًا بعد سبعة أيام..

7. لو كنت تعتقدين أنك بدينة، فأنت كذلك على الأرجح.. لا تسألينا..

8. لو قلنا شيئًا يمكن تفسيره بطريقتين.. طريقة منهما تجعلك غاضبة أو حزينة، فنحن كنا نقصد المعنى الآخر

9. يمكنك أن تطلبي منا عمل الشيء أو تخبرينا بطريقة عمله . لا يمكنك القيام بالأمرين معًا.. لو كنت تعرفين بالفعل أفضل طريقة لعمل الشيء فلتفعليه بنفسك..

10. كلما أمكنك ذلك.. قولي ما تريدين قوله أثناء الفترة الإعلانية بين برامج التلفزيون..

11. كل الرجال لا يرون إلا 16 لونًا مثلما يحدث في نظام وندوز من دون كارت لشاشة لهذا.. الخوخ فاكهة وليس لونًا.. والقرع العسلي فاكهة وليس لونًا.. نحن لا نعرف معنى كلمة (موف) أو (سيمون)..

12. لو سألنا (ما هي المشكلة؟) فقلت (لا شيء) فسوف نتصرف على أساس أنه لا توجد مشكلة. نعرف أنك تكذبين لكن الأمر لا يستحق وجع الدماغ.

13. لو سألت سؤالاً لا تنتظرين إجابة عنه، فلتتوقعي

إجابة لا تريدين سمعها.

14 عندما ننتوي الذهاب لمكان ما فأي شيء نلبسه مناسب.. فعلاً.

15. عندك ثياب كافية..

هنا أتوقف لأبدي انبهاري بذكاء الفقرة الثالثة.. كل النساء يعتبرنك عبقريًا يجب أن تفهمهن بإشارة أو كلمة هامسة.. أعترف أنني مصاب بعمى تلميحات كامل. الفقرة الرابعة ممتازة كذلك.. هناك من تشكو لمجرد أن تشكو ومن دون أن تترك لك أي حل.. الفقرة السادسة تثير ألمًا خاصًا في النفس عندما تقول لك المرأة أنه في يوم كذا عام 1932 الساعة الرابعة مساء قلت كذا وكذا، فكيف طاوعك قلبك على ذلك؟.. بصعوبة تتمكن من إقناعها أنك لا تذكر عنوان البيت إلا بصعوبة. الفقرة التاسعة رائعة.. أرجو أن نصلح صنبور الحمام.. ثم "لا تطه المقيش بهذه الطريقة.. ربما كان الأفضل لو فككته هكذا.." .. أما عن الفقرة رقم 11 فهي مشكلة الرجال جميعًا الذين لا يفهمون أن يكون هناك لون اسمه (حلاوسكي) أو (ألانجاه)..

وينهي الكاتب الفذ في رسالته لزوجته قائلاً:

- "شكرًا على قراءة هذا.. أعرف أنني سأنام على الأريكة هذه الليلة بدلاً من الفراش، لكن الرجال لا يبالون بهذا. يعتبرونه نوعًا من نوم المعسكرات"

هذا رجل شجاع إذن.. أما أنا فلا أملك شجاعته لهذا أنهي هذا المقال بسرعة، وأتوسل لكم ألا تخبروا زوجتي أنني كتبته. قولوا لها إنني ترجمت كلامًا لم أقتنع به.. قولوا لها إنه مقال مدسوس علي.. قولوا أي شيء عدا الحقيقة!!

الصارخون

أمقت الصوت العالي بشكل لا يوصف. ومن المؤسف أننا محاطون بأشخاص لا يملكون أية موهبة إلا صوتهم العالي. في الحقيقة لا أعتير الصوت العالي صفة عربية سائدة، فأنا قد تعاملت مع كثير من الأصدقاء الخليجيين والسودانيين، وقد وجدت أكثرهم أميل إلى الهدوء والصوت الخفيض حتى في أشد حالات الانفعال، وهكذا كونت نظريتي الخاصة عن أن الصوت العالي يميز شعوب البحر المتوسط عامة.

المجد للصوت العالي والويل لخفيض الصوت في حوض البحر المتوسط.

صباح اليوم أفقت من نومي في السادسة صباحًا على صوت رجل يصرخ في الشارع، فلما أصخت السمع فهمت أنه رجل يخبر صديقه بسر.. وهو يكرر:

-"هذا الكلام بيننا يا فرج..!.. لا أحد يعرف هذا الذي

قوله"

يبدو أنه يشك في سلوك زوجته، وكرامته تأبى أن يعرف مخلوق بهذا.. أي مخلوق خارج شارعنا طبعًا لأن كل سكان الشارع صحوا من نومهم ليتابعوا هذه القصة المثيرة

حاولت أن أعود للنوم، لولا أن صحوت على صوت طالبة تخبر صديقتها وهما ذاهبتان إلى المدرسة بأنها تميل إلى صلاح ولا تشعر بالراحة مع حسن..

-"لا تخبري أحدا بهذا يا مبمي وإلا جن جنون حسن"

أوشكت على النوم لبعض لحظات ثم صحوت على صوت رجل يخبر صديقه بتفاصيل سرية عن القضية التي سيرفعها على مستأجري العقار الذي يملكه:

-"لو عرفوا بنواياي لاستعدوا لها.. أرجو أن يظل هذا الموضوع بيننا"

فقط يجب أن اخبرك أنني أقيم في الطابق الرابع، فليرحم الله سكان الطابق الأول إذن لأنهم بالتأكيد ماتوا منذ أعوام.

هناك كذلك من يحكي لصاحبه نكتة من إيحاء، وهو مصر على أن تسمع النكتة كل عذراء وكل طفلة وكل أم في المطعم.. المشكلة أنه يخفض صوته عند ذروة النكتة فلا تعرف أبدًا لحظة التنوير. هذا يذكرني بالرجل الذي كان يعود لداره ليلاً فيخلع حذاءه الأيمن.. بوم!.. يهب الجيران مذعورين.. ثم يخلع حذاءه الأيسر.. بوم!.. كل ليلة حتى صعد له جاره وتهدده بالويل لو استمر ينزع حذاءه بهذا العنف. عاد الرجل لداره ليلاً فنزع حذاءه الأيمن.. بوم!.. ثم تذكر التهديد الذي تلقاه.. هكذا نزع الحذاء الأيسر بلطف ورقة. المشكلة أن الجيران في الطابق الأسفل ظلوا ساهرين ينتظرون صوت (بوم) الثاني بلا جدوى!.. هكذا صعد له جاره يصيح فيه: "انزع الحذاء الأيسر أيها الوغد لينام الأطفال!"

هناك كذلك هواة الصراخ في الهاتف، وهم كثير في مجتمعنا.. كان مصطفى أمين الصحفي الشهير لا يقدر على التركيز في كتابة مقاله، لأن دار أخبار اليوم كلها كانت ترتج بصراخ أحد الموظفين وهو يتكلم في الهاتف.. سأل مصطفى أمين عن

بسبب هذا الصراخ فقيل له إن الموظف يكلم أسرته في دمنهور. قال مصطفى أمين في غيظ: "طيب ما يكلمهم بالتليفون يا أخي!!"

هناك نوع آخر من البشر الذي تهمس له بشيء فيكرر ما قلته بصوت عال يوقظ الموتى. تدنو من ذلك الموظف الجالس وسط فتيات وتقول له بصوت خفيض:

-"............ ......"

فيصيح بصوت يطيرك في الهواء:

-"ماذا؟.. تريد الذهاب لدورة المياه؟.. لماذا؟"

أو تهمس لصديقك وأنت تضع يدك على فمك:

-"............."

فيصرخ:

-"ماذا؟. لا تطيق ذلك الرجل الذي يلبس السترة الزرقاء؟.. هل ضايقك في شيء؟"

هناك نوع آخر من البشر يصرخ طيلة الوقت حتى يسبب لك الحرج. أذكر أنني كنت أكلم أحد عمال المستشفى وكان يشكو

صارخ لي من أعراض تضايقه لدى إفراغ الذنة. احتقن وجهه واحمر وتطاير اللعاب من فمه وأنا أحول تهدئته. عندما قابلت زملائي بعد ذلك وجدتهم يسألونني في حذر:

-"لماذا كان ذلك العامل يصرخ فيك؟.. ولماذا وقفت عاجزًا عن الرد أو اتخاذ إجراء صارم؟"

تحاول إقناعهم بأن الأمر يتعلق بحماس مبالغ فيه، فيهزون رءوسهم هزة العليم بكل شيء، ويقولون:

-"نعم.. نعم.. بالطبع!"

لا مكان في هذا العالم لخفيضي الصوت، ولهذا أبحث جديًا عن مكان يعطي دورات لتعليم الصراخ. وربما كان التمثيل المسرحي مفيدًا في هذا الصدد.. هل لديك اقتراحات؟

عن الهاموش وحمامات السباحة

يومًا ما عندما أجمع المادة العلمية الكافية - سوف أكتب دراسة علمية أكاديمية رصينة عن العلاقة بين حفلات الزفاف حول حمامات السباحة وارتفاع معدلات الطلاق. لا أريد أن أكون غراب بين لكني لا أتوقع انسجام الزوجين متى رأيت أن الزفاف يُعقد حول حمام سباحة في ن.د. سوف يكون بحثًا علميًا مهمًا يبلغ عدد صفحاته نحو مائتي صفحة من القطع المتوسط، وسوف تفرد له مجلة لانسيت العالمية عددًا كاملاً..

لكن حتى تأتي تلك اللحظة سأكتفي بسرد القصة التي جعلتني أتنبه لهذا..

رانية كانت فاتنة كليتنا. أعتقد أن كل طالب في الكلية قد

تحلم بأن يعطيها زهرة.. أما الطلاب الأكثر وقاحة وثراء فكانوا يحلمون بأن تعطيهم هي زهرة .

رانية كانت فاتنة كلينا وكانت كذلك صديقتي.. السبب كما قالت هو إنني الإنسان المحترم الوحيد الذي لم يسبل عينيه ويعلن أنه يهيم بها. بهذه العبارة وضعت سدادة من الفلين على فمي كأنني زجاجة زيت تموين، ولم يعد واردًا بأي شكل أن أظهر لها ما أخفيه..

في السنة النهائية تقدم لرانية عريس ثري أمضى معظم حياته في الخارج، وقد قبلت الزواج منه لأنها بالطبع لن تقبل بأي واحد من هؤلاء المتحرشين زملائها في الكلية. ودعتني مع مجموعة من الأصدقاء فتيات وفتيان إلى الزفاف..

ذهبنا في الموعد المقرر إلى النادي لنجد مشهدًا من ألف ليلة وليلة . حمام السباحة يسبح في الأضواء الملونة، على حين تطفو فوق الماء بالونات وورود.. وهناك فتيات صغيرات كالفراشات يتواثبن هنا وهناك بينما الفرقة تعزف لحنًا رقيقًا.

المشكلة الوحيدة هي الهاموش، والهاموش هو تلك

الحشرة الدقيقة ،المزعجة التي تطير حولك وتلدغ أنفك فتعطس، أو تلدغ عينك فتدمع، أو تلدغ جلدك فتهرش . لابد من الكثير من الهاموش مع مبه الحمام والإضاءة الليلية.

كن العريس كما توقعته.. هو يفوقه سنًا بعشر سنوات على الأقل، ووغد متسخك لعلم أن كل الناس أوغاد مثله لابد من التعامل معهم بحذر. وعندما رآه نجلس قرب الكوشة راح ينظر لنا في كراهية.. زملاء زوجته في الكلية الذين يماثلونها عمرًا.. هؤلاء الأوغاد.. ليس منهم و حد بالطبع إلا وقد حم بأنه تزوجها هو أو ربما حلم بما هو أسوأ..

راح ينظر لنا في مقت شديد ولسان حاله يقول . انتهت اللعبة يا أنذال.. هذه الحسناء لي أنا وحدي وعليكم أن تعودوا لبيوتكم لتعبثوا في أنوفكم وتناموا مبكرًا..

أخيرًا جاء وقت الانصراف، وهكذا مشينا في صف لنصافح الزوجين مهذبين.. العريس يصافح كل واحد منا بينما رانية تقدمه له.. هذا ماجد وهو صديق مخلص.. تشرفنا يا سيد ماجد.. وهذا عصام وهو صديق نبيل . تشرفنا يا سيد عصام..

العريس يحتنتن ووجهه يحمر ويحمر.. كل هؤلاء يحبونها؟..

أخيرًا اقترب دوري فضممت سترتي وتوجهت لأصافحه. هنا اخترقت عيني تلك اللدغة من هاموشة وقحة متحمسة..

أخرجت المنديل ومسحت عيني، لكنها ظلت تدمع بلا انقطاع وأدركت أنها بالتأكيد حمراء كالطماطم. على هذه الصورة دنوت لأصافح العريس.. عين حمراء ودموع تسيل بلا انقطاع ومنديل في يدي.. دعك من تلك الرعشة العصبية التي أصابت زاوية فمي من الألم..

-"أحمد.. صديق نادر.."

مددت يدي أصافح الرجل وأنا انشق بأنفي لأمنع المخاط من أن يسيل. رأيته يصافحني قد ازدحمت الشكوك على وجهه حتى لم يبق موضع لقدم. صديق زوجته قبل الزواج يأتي ليهنئها في حفل الزفاف دامع العينين متقرح الجفنين.. ما معنى هذا؟

لابد أنه تذكر (ورد) زوج ليلى العامرية الذي لم يجد حلاً لحب زوجته لقيس سوى أن يقول للأخير: "أنت حبيب القلب

والـزوج أنـا " ، ولابـد أنـه توقـع أن اصعد إلى المسرح لأغني..
"حبيبها لست وحدك.. حبيبها أنا قبلك.. وربما جئت بعدك..
وربما كنت مثلك؟"

هكذا ظل يراقبني في شك مجنون ووجهه أحمر كالطماطم الفتاظه، وظلت عيناه تتبعانني حتى وأنا أبتعد . على باب النادي نظرت فوجدته ما زال ينظر لي .

حسن.. أنت تعرف ما حدث بعد شهرين.. لقد طلقت رانية.. لست مغرورًا فأزعم أنني كنت السبب الوحيد لكن لا تنكر أنني كنت ما يمكن تسميته (مسمار في نعش العلاقة الزوجية)..

هل السبب أنه مجنون؟.. أم السبب هي تلك الهاموشة اللعينة؟.. أم السبب هو حمام السباحة؟.. لم أكون رأيًا عامًا بعد، لكني أعدك بتقديم هذا الرأي ضمن الدراسة الأكاديمية المعقدة التي أنتوي كتابتها يومًا ما عن علاقة حمامات السباحة بالطلاق.

ألغاز طبية

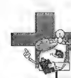

قبل أن ألتحق بكلية الطب كان هناك لغز يؤرقني في الأفلام العربية التي أراها: فما إن تشعر المرأة بآلام الولادة حتى تقول إحدى السيدات العجائز لصاحبتها أو يقول الطبيب:

- "قومي بتسخين الماء"

فتهرع المرأة إلى المطبخ لتغلي إناءً كبيرًا تحمله في حذر إلى غرفة الوالدة وهنا ينغلق الباب في وجهنا فلا نعرف ما حدث بعد ذلك..

كان عندي من الشجاعة الأدبية ما سمح لي بأن أسأل أمي عن استخدام الماء الساخن في الولادة، فقالت في غموض:

- "هذه أمور نسائية لا تسأل عنها.. "

ثم كبرت نوعًا فوجدت كتابً كتبه طبيب أمريكي يبسط

العلوم الطبية لقارئ، واسم الكتاب هو (حتى يحضر الطبيب). يقول المؤلف في باب الولادة: "لا داعي لعادة تسخين الماء لأن هذا قد يسبب حروقًا خطيرة لك أو الأم أو الجنين"

هذا ما قاله ولم يشرح استخدام هذا الماء.. أقصد الاستخدام الخطأ الذي ينبغي أن نتوقف عنه. إذن الأمريكان يسخنون الماء كذلك ولسبب مجهول..

دخلت كلية الطب إذن، وانتظرت في صبر حتى درسنا الولادة.. كل شيء عن الولادة والأغشية التي تنفجر ودوران الرأس و.. كل شيء.. وقد قمت بتوليد نساء كثيرات في بداية حياتي قبل أن أتخصص في الأمراض الباطنة. لم يحدث قط أن احتجت للماء الساخن، ولم أر أي شخص يحتاج للماء الساخن أمامي..

لكنني فطنت بعد أن ابتعدت عن صرخات غرفة التوليد بعشر سنوات أنني لم أتلق الإجابة قط.. لم أعرف ما يفعلونه بالماء الساخن في الأفلام

هكذا انتحيت بأحد كبار أطباء التوليد جانبًا وسألته عن سر الماء الساخن، فاتسعت عيناه في ذهول وظل ينظر لي عاجزًا عن

الكلام بضع ثوان ثم قال:

-"حقاً لا تعرف؟.. إنسان مثقف مثلك، أو هذا ما كنت أحسبه؟.. أنت تمزح طبعا.. لا يوجد تفسير عندي سوى أنك تمزح.."

هنا انفجرت ضاحكاً وقلت له إنني كنت أمزح فعلاً، عليه ألا يكون ساذجًا لهذا الحد. هناك مشكلة مزمنة عندي هي أنني لا أبدو كمن يمزح عندما أمزح. قال لي بلهجة جدية

-"أنصحك ألا تسأل أسئلة بلهاء كهذه وإلا ظنوا بعقلك الظنون!"

هكذا قضي الأمر وصار علي أن أبقى جاهلاً لأنه لا بد من أن الأمر ليس بهذه الشجاعة لأن أبدو جاهلاً لنصف دقيقة، وعلى كل حال قد كونت نظريتي الخاصة عن الموضوع: غالبًا يستعمل الماء الساخن لقتل الوليد إذا كان قبيحًا، أو هم يحرقون الأم به كي لا تشعر بألم الولادة، وربما هم يفعلون هذا لاستفزازي فقط. أي أنهم يسخنون الماء في كل الولادات كي أجن أنا..

مشكلة أخرى حيرتني في كلية الطب هي (برد المعدة)..

هناك ذلك الرجل الذي يشعر بتوعك وغثيان فيقول له الطبيب إنه مصاب ببرد في المعدة. درست الجهاز الهضمي والحميات فلم أقرأ قط تعبير (برد في المعدة) هذا. ولماذا يفضل البرد المعدة على أعضاء أخرى؟.. هذه ألغاز كونية لا إجابة عنها وبالطبع كان رد أي طبيب سألته هو:

-"ها.. ها.. أنت تمزح طبعًا.. "

هكذا حرست تمامًا.. وهأنذا أقترب من نهاية حياتي دون أن أعرف معنى برد في المعدة هذا.. من الواضح أنني فشلت.. أقولها حزينًا كاسف البال..

كل هذا محتمل، لكن ما معنى (كسل في الكبد)؟.. هناك تليف كبد.. قش كبدي حاد ومزمن. التهاب كبدي.. دهون كبدية.. الخ.. لكن ما معنى (كبد كسول)؟ هل تتحسن حالته ببعض التدليك أو التدفئة؟.. هل يفيده شرب المنبهات كالشاي والقهوة؟

بالطبع لا أعرف.. دكتوراه في أمراض الكبد ولم أعرف بعد.. والأدهى أن كل الناس يعرفون ما عداي..

ماذا؟.. هذه زوجي تطلب مني أن آتي معها فورًا لأن أختها قد داهمتها آلام المخاض.. تهرع إلى بيت أختها لتدرك أن الوقت لن يتسع لنقلها إلى المستشفى.. يبدو أنها ستضع وليدها على الفراش، هنا أشمر ذراعي وأقول لزوجتي في حزم:

-"قومي بتسخين بعض الماء"

تنظر لي في حيرة ثم تقول:

-"والسبب؟"

فأضرب كفًا بكف وأقول في عصبية:

-"لا تسأليني حتى لا يظن أحدهم بعقلك الظنون.. امرأة في هذه السن ولا تعرف أهمية الماء الساخن في الولادة؟!.. هيا.. لا تنظري لي بهذه الطريقة كأنك مصابة بكسل في الكبد وبرد في المعدة.. قومي بتسخين الماء وربما أشرح لك ما استغلق عليك من أسرار فيما بعد"

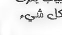

لبيب يعرف كل شيء

ليس الموت من الأمور التي ... يمكن أن تجد فيها دعابة ما، ولو وجدت فأنت على الأرجح عبقري من عينة مارك توين وأوسكار وايلد أو أنت مجنون. لكن ما يثير الضحك فعلاً هو التصرفات السخيفة للناس في تلك المواقف.

في إحدى مقالات أحمد رجب الساخرة حكى عن ذلك الرجل الذي جلس جواره في سرادق عزاء، وراح يحكي له قصة تخريفية لا أول لها ولا آخر عن علاقته بالملك فؤاد ملك مصر الأسبق، وكيف أن الملكه كانت تحب الرجل راوي القصة بشدة، لهذا فتح بابه ذات مرة ليجد الملك فؤاد واقفًا حافي القدمين، وهو يحمل رغيفين وقرطاسًا به طعمية وحزمة فجل، ويقول له: "جئت آكل معك عيشًا وملحًا حتى لا تخونني!".

عند هذا الحد من القصة انتهت قدرة أحمد رجب على التحمل وانفجر ضاحكًا في سرادق العزاء الوقور، ليطرد شر طردة. هذه القصة حكاها أحمد رجب وانتهى الأمر، لكنها ظلت كالهاجس يطاردني في كل عزاء أحضره.. إنه وسواس قهري رهيب يجعلني أتخيل الملك فؤاد حافيًا وهو يحمل قرطاسًا مليئًا بالطعمية.. هكذا أضغط على أسناني وأبتلع ريقي.. علمًا أنني في الحقيقة أنقذ حياتي نفسها.. لو ضحكت بصوت عال لانتهى أمري..

ليس هذا فقط ما يضحكني.. هناك اللحظات الأولى بعد الوفاة عندما يتصايح الناس - لا تفعلوا شيئًا.. إن (لبيب) قادم.

(لبيب) هذا قد يكون مسلمًا أو مسيحيًا.. المهم أنه رجل في الخمسين، وهو من الطراز الذي يعرف ما ينبغي عمله. دعك من أنه يستمتع بهذه الأمور بشكل واضح. سرعان ما يصل وقد بدا عليه الحزم وقلب شفته السفلى في قرف.. لسان حاله يقول: انتهى المزاح.. لقد جاء الخبير.

يجلس في مكان الصدارة ويصدر تعليماته في حزم

-"لا نريد تخبطًا.. سوف يتم الغسل هنا، وبعد هذا ننقل الجثمان إلى مسجد (لسرجاني) حيث نتم الصلاة عليه.. صه!.. لا أريد معارضة وتخبط رأي. العزاء سيكون في قعة المناسبات بعد صلاة العشاء.. ش ش ش!.. أعطوني ورقة وقلمًا!"

هكذا يصدر الأمر وعيناه تتلقان الشرر، هكذا يهرع الجالسون مرتجفين ليحضروا له ما طلب.. يمسك بالقلم ويبدأ الكتابة في فخر:

-"بقلوب يملؤها الأسى ننعي فقيد عائلة (الشماشرجي) المهندس (الشماشرجي عبده الشماشرجي) المدير السابق لشركة الشماشرجي ووالد كل من.. ونسيب أسرة وأسرة.. الخ.."

ويملأ النعي في كبرياء وفخر.. أسعد لحظة في حياته هي اللحظة التي يموت فيها شخص يعرفه ليسعد باستعراض كل الأسماء المهمة التي تضمها أسرته.. يوشك أن يبكي تأثرًا عندما يكتب: "ونسيب اللواء محمد الشماشرجي بجهاز أمن الدولة، والعميد محمد الشماشرجي برئاسة الجمهورية.. و.."

يسمع صوت بكاء من ابن الفقيد فتتسع عيناه وينظر له

نظرة مرعبة:

-"شريف!.. تماسك ولا.."

ثم يواصل اللحظات الممتعة حتى يوشك على التأوه من فرط النشوة وهو يكتب أسماء كل السادة الذين تضمهم القائمة، ثم يناول الورقة لأحدهم ويأمره في حزم أن يحملها إلى الصحف.

-"لو قالوا إنه لا مكان لهذا النعي في صحف الغد، فلتقل لهم إن العميد محمد الشماشرجي برئاسة الجمهورية يأمرهم بإفساح مكان له.. هه؟.. أنا لن أفعل كل شيء بنفسي.. أنتم مجرد أطفال لا تستطيعون عمل شيء.. اخرس يا شريف!.. "

ثم تشييع الجنازة التي يتقدمها لبيب وهو يضع نظارة سوداء وقد رسم التأثر على وجهه، لكنه لا ينسى توبيخ حملة النعش.. يغيبون الجثة في القبر، ويقف ابن الفقيد وهو متماسك راض بقضاء الله راغبًا في قراءة بعض آيات القرآن على قبر أبيه، هنا تحدث الظاهرة التي لا أفهمها وهي أن كل واحد من الواقفين يتشحط في الفتى ويجرونه جرًا بعيدًا عن القبر بدعوى حمايته من الانهيار.. الفتى يقسم بالله العظيم أنه متماسك وأنه يريد أن يترك

وشأنه لحظة، لكن (لبيب) لا يرحمه.. رأيت أبناء متوليّن يتقون علقة ساخنة على قبور آبائهم.. الكل يجرهم.. الكل يدفعهم.. الكل يلكمهم في أكتافهم مع ترديد: يالله.. يالله!.. هيا!.. انتهينا..

وسرعان ما يجد ابن الفقيد نفسه خارج المدافن كلها مبعثر الشباب مغبرًا، ولربما نزف الدم من أنفه من كثرة ما تلقى من لكمات.. ثم يظهر الأخ لبيب من مكن ما ليشخط فيه وهو يرمقه بنظرة نارية:

-"لعب العيال هدا!.. ألا تتماسك وتكون رجلاً؟"

نعم.. لا أستطيع في أحيان كثيرة أن أشهد طقوس الدفن والعزاء من دون أن أضغط على أسناني بقوة كي لا أضحك.. لو ضحكت لكانت نهايتي خاصة لو كان الأخ (لبيب) قريبًا..

صينية الآلام

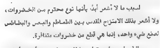

هناك أشياء معدودة
أمقتها بجنون؛ منها القسوة
والتعصب والفقر المذل و . صينية البطاطس..

لسبب ما لا أشعر أبدًا بأنها نوع محترم من الخضروات، ولا أشعر بذلك الامتزاج المقدس بين الطماطم والبصل والبطاطس لصنع شيء واحد، إنما هي قطع من خضروات متنافرة.

بالطبع ليس ما يروق لي وما لا يروق لي موضوعًا مناسبًا لمقال حتى إن كان محببًا لي شخصيًا، لكني أحاول أن ألقي الضوء على حياة العزاب التي تلعب فيها صينية البطاطس دورًا لا بأس به.

يعود الأعزب من عمله منهكًا غارقًا في العرق، فينزع ثيابه مسرعة، ويهرع بثيابه الداخلية إلى المطبخ ليقطع بعض حبات البطاطس وبعض شرائح الطماطم والبصل في صينية، ثم يمزق الدجاجة التي ابتاعها أمس إلى أربعة أشلاء يدفنها تحت

الخليط ويزج بالصينية في الفرن خلال دقائق، ثم يتفرغ لارتداء ثياب البيت والوضوء والصلاة إذا كان من المصلين، أو العبث بأصابع قدميه إن لم يكن منهم، ثم ينتقل إلى الجزء الثاني من برنامج عمله؛ وهو وضع ثيابه بما في جيوبها من أوراق ونقود في الغسالة وتركها تدور إلى الأبد..

هذا يمكنه أن يفخر أنه يجيد الطهي ويجيد الغسيل معًا..

فما أن ينتهي حتى يكون الغداء قد نضج بدوره فيجلس وحيدًا أمام التلفزيون يلتهم طعامه.

في فترة من حياتي كنت أعزب أعيش وحدي، وقد جربت الطهي مرة أو مرتين، فكنت أتشمم الطعام بعد أن ينضج.. ومن دون تردد أحمل الإناء لأسكبه في سلة المهملات ثم أنزل قاصدًا أقرب مطعم لي..

أدمنت أكل المطاعم، وكنت أجعل الطعام يحضر لي طعامي أحيانًا، فأتمم الحلوس أمام التلفزيون وأنا أفتح الكيس لتنبعث رائحة الدجاج المشوي الشهية ورائحة الأرز الأشهى لحظات

نورانية أمطرها طيلة اليوم في صبر.. ثم يأتي النوم.. النوم الطويل الجميل بعد الأكل والذي يمكن بسهولة أن يتحول إلى موت لولا إرادة الحياة لدي.. إرادة الحياة وموعد «الدوام الليلي» طبعًا..

هكذا كنت راضيًا بحياتي سعيدًا إلى أن اكتشف العزاب الذين يعملون معي في ذات المكان إنني آكل وحدي..

-"هذا لن يكون.. عيب!"

قلت لهم إنني سعيد بحالي، لكنهم صمموا على أني معذب تعس ويجب أن أنوك لهم نفسي..

قلت لهم إننا جميعًا في الهواء سواء.. ليس بيننا من ينعم بطهي زوجته فلم لا يتركونني وشأني؟.. لا وسيلة..

هكذا وجدت نفسي مدعوًا يوميًا تقريبًا إلى دار واحد منهم يقسم أغلظ الإيمان أنه لن يتركني.. أحدهم حلف على امرأته بالطلاق ثلاثًا برغم أنه لم يتزوج بعد، لكنني بالطبع ذهبت لأنني أخشى خراب البيوت..

هكذا أجلس مع هؤلاء الكرماء نتبادل النكات ونغتاب الناس ونشتم من ليس بيننا، إلى أن يظهر صاحب الدعوة حاملاً

الكنز الذي سيحميني من الموت جوعاً.. صينية ابطاطس..

-"إنها سهلة لذيذة كما تعلم!"

أكظم غيظي وآكل.. طبعاً لا ينتهي الأمر هنا فلابد من جلسة تطول بعد الغداء.. عيناي مثقلتان ورغبة ملحة للنوم تقتلني لكني أتماسك، وفي النهاية يطلقون سراحي فأعود لداري لأكتشف أن موعد الدوام الليلي بعد نصف ساعة وأنا لم أنم!

في اليوم التالي يظهر صديق أعزب آخر.. إن شاء انه أنت ضيفي اليوم. أحاول التملص لكن وجهه يحمر ويتصاعد البخار من منخريه.. أنا لست أقل من فلان وأنت قبلت دعوة فلان أمس.. - هذه إهانة..

هكذا أجد نفسي جالساً مع شلة العزاب نتبادل النكات ونغتاب الناس ونشتم من ليس بيننا، إلى أن يصل صاحب الدار حاملاً منا جاته الساخنة.. صينية البطاطس طبعاً!

-"إنها سهلة لذيذة كما تعلم!"

ويتكرر كل شيء.. صرت أكره صينية ابطاطس.. أراها في كوابيسي.. أتخيل نفسي دجاجة ممزقة وسط البطاطس توضع في

فرن.. صار الأكل في المطعم حلمًا أتمنى أن أعيشه مرة واحدة قبل الموت..

هكذا استمر الحال إلى أن جاء الفرج على يد واحد من زملائنا.. هو رجل متزوج ظريف أصر على أن يدعونا نحن العزاب لداره..

-"أنتم تبدون كالأشباح.. لابد من أكلة محترمة دسمة من يد زوجتي تعيدكم لعالم البشر"

قال لي رفاقي وهم يغمزون إن دعوة هذا الزميل لا تُرفض لأنه مشهور بالكرم. سوف نأكل أكلاً يغنينا عن صينية البطاطس عدة أيام..

تفاءلت خيرًا وذهبت للدعوة.. طبعًا لا داعي لأن أخبرك أن زوجته اختارت لنا صينية البطاطس في ذلك اليوم بالذات، فهي وجبة سهلة لذيذة كما تعلم!.

بعد الغداء جلس جواري وهمس لي أنه يثق بي كثيرًا ويراني رزينًا مهذبًا.. إنه يرشح لي أخت زوجته عروسًا لتخرجني من حياة العزاب الكريهة هذه. لكن هل عندي

مواصفات معينة أتمناها في شريكة حياتي؟

قلت في بساطة:

-"لا مواصفات على الإطلاق.. فقط أريد زوجة صالحة ترعى بيتها و.. لا تجيد عمل صينية البطاطس؟"

فيديو كليب يا باشا

لأسباب تتعلق بالشعر الأبيض والضمير وادعاء الوقار والواجب التربوي وكراهية الابتذال والاشمئزاز من زيادة الأمور عن حدها والشعور بالتميز. لأسباب تتعلق بهذا كله لست من هواة مشاهدة قنوات الفيديو كليب التي انتشرت كالوباء في كل مكان. لحسن الحظ ما زال أطفالي صغيري السن جداً إلى الحد الذي يجعل الطفلة تؤمن أن بوكاهانتاس أجمل بكثير من كاظم الساهر، والطفل يؤمن بأن منظر رجل يمزقه (فان ديزل) بالطلقات أجمل بمراحل من هيفاء وهبي..

لكن الوضع سوف يتغير. هذا مجرد تأجيل للمعركة وليس إلغاء لها..

فقط يمكن أن نرى لمحة عابرة من هذه البرامج أثناء رحلة (الريموت) التي تقصد مرفأ الأمان في (سبيس تونز). هكذا استطعت أن أكون فكرة عابرة عما يحدث هناك، وتذكرت كريكاتورًا عبقريًا للفنان (شريف مرقة) نرى فيه ضابطًا في شرطة الآداب يقبض على رجل وامرأة عاريين تحت لأغطيه، فيقول له الرجل في رعب: "ليس بيت دعارة وأنه العظيم يا باشا نحن فقط نصور الفيديو (كليب الجديد)". ليس هذا الكاريكاتور مبالغًا جدًا بل هو أقرب لما أراه من لمحات..

أفضل دومًا تمضية الوقت الإجباري بانتظار شيء ما جالسًا في كافتيريا، وهناك تكتشف وسط الصخب الجالسين أنك لو طلبت رؤية قناة الجزيرة مثلاً لمرقوك إربًا.. هكذا تجد نفسك مضطرًا لمشاهدة هذه الكليبات. في البداية كان أسوأ شيء عرفناه أو سمعنا عنه هو تلك الطربة السمراء الشابة التي ترقص بثوب الرقص في الطريق العام.. لكن.. من حقهم أن تجن قليلاً.. بعدها وأيديها تتلوى على دراجة ثابتة والكاميرا موضوعة في زاوية غريبة جديرة بمخرج طليعي مثل (جان لوك جودار) أو (ليلوش). من

العريب أنني سمعت هذه الأغنية من المذياع قبل أن أراها وبدت لي خفيفة الدم مرحة، وصوت الفتاة يعبر فعلاً عن المراهقة المصرية الحالمة، ثم رأيت الأغنية فتلت: "أعوذ بالله.. ليس لهذه الأغنية أية علاقة بأي شيء سوى حنات لقرصنة في جزر الأنتيل". وكففت عن دندنة الأغنية لأنني خشيت أن يظنوا بي الظنون . الخلاصة أن الكليب أساء للمطربة وأحسن للأنثى..

كلما ظننت أننا بلغنا القمة في الابتذال ظهرت قمة أخرى حتى أنك لتحني رأسك انبهاراً بعبقرية هؤلاء القوم. المطربة التي تعني لحصان وهي... ما علينا.. هناك مطربة تغني وهي تتلوى في الفراش مع حبيبها.. هناك وهناك..

ليس هذا كل شيء.. هناك جو عام من الافتعال والسخف واستنساخ التجارب الغربية لا أذكر كم فيديو كليب رأيت فيه قتلة من رجال المافيا يحملون بنادقهم (التومي) في عدب كمان ويمشون بأحذيتهم البيض وقبعاتهم قاصدين ملهى ليليًا ليقتلوا من فيه. كل الكليبات فيها سيارات فاخرة فارهة تتسابق كأنه لا يوجد عربي واحد يمشي على قدميه أو يركب سيارة عتيقة..

بيوت عملاقة وتدريب في قاعة جمنزيوم وأشياء غريبة جداً..

في أسفل الشاشة ترى المبرر الاقتصادي الوحيد لصنع هذا الهراء: شريط رسائل الجوال الذي يزحف كثعبان طويل تحت الشاشة، وترى رسائل من نوعية: "منه لله الويروي اللي كسرك عليه". الويروي لن لا يعرف هو هذا؛ وُضع شهير جداً في مصر ومن الواضح أنه جعل الفتاة تكبر بسرعة فصارت لا تبالي بحبيبها.. "حزينة موت من اسكندرية.. ممكن أكلم الأخ حساس قوي؟" يصعب تخيل أن الأخت (حزينة موت) والأخ (حساس قوي) جالسان أمام الشاشة يكتبان هذا الكلام الفارغ، وبرغم هذا واحد منهم حزين والآخر حساس.

شلال من الدراهم والجنيهات والريالات والدولارات ينهمر على صحب القناة حتى إنه ليوشك على الاختناق من فرط المال المتساقط عليه..

بالطبع لا يمكن أن تجذب كل هؤلاء من دون دراجة ثابتة وحصان.. ومن المستحيل كذلك أن تتذكر إن كانت الأغنية لها كلمات أم لا.. لها لحن أم لا.. فقط أنت تتذكر أنه كان هناك

فتيت.

-"أسألك يا أستاذ.."

أجفل وأنظر في رعب للنادل الذي أحضر القهوة ووقف جواري ربع ساعة ينتظر أن أفيق ليسألني إن كنت أريد (نرجيلة) أم لا.. ابتسامة ساخرة خبيثة جدا على شفتيه فأقول في ارتباك:

-"أحاول فقط أن أعرف الخطر.. الخطر الذي.. لا عليك.. لا أريد نارجيلة"

ربما ليس الأمر بهذا السوء على كل حال، فأنا لا أنكر أنني بدأت أشعر باشمئزاز من كل هذا الابتذال لكرامة المرأة. ربما تكون الفلسفة الهندية القديمة صالحة هنا، وهي أن الاستغراق في الآثام قد يؤدي إلى التطهر والقرف الأبدي منه. لكن إلى أن ينجح هذا مع أولادي فإن علي أن أراجع فصل (تشفير القنوات) في كتيب تعليمات جهاز الديش..

حبة بازلاء

عندما قال لي صاحبي إنه سيتزوج،
تذكرت القصة القديمة العبقرية لـ (هانس كرستيان أندرسن) عن الأمير الذي يبحث عن أميرة حقيقية ليتزوجها.. هنا ظهرت – في ظروف معقدة ما – أميرة ضلت الطريق وطلبت المبيت في قصره. لا يأخذنك الخيال بعيدًا لأن هذه قصة أطفال.. كل ما حدث هو أن الملكة الأم قررت عقد اختبار صغير لهذه الأميرة لمعرفة إن كانت أميرة حقًا.. وضعت حبة بازلاء على حشية فراش ثم وضعت فوقها أربع حشايا كاملة، وطلبت من الأميرة قضاء الليل في هذا الفراش.. في الصباح بدت الأميرة مرهقة لأن شيئًا صلبًا في الفراش ظل يؤلم ظهرها طيلة الليل!.. هنا هتفت الملكة في حماس "تزوجها يا بني فهي أميرة حقيقية!.. فقط الأميرة سليلة الملوك هي التي يمكن أن تشعر بحبة بازلاء تحت أربع حشايا..!"

لقد رأيت الفتاة التي راقت لصاحبي، وبدت جميلة رقيقة لكني شعرت نوعًا ما من التصنع وادعاء الرقي في سلوكها.. إنها لا تظهر ما تبطن تمامًا.. إن للتصنع حدودًا ولابد من علامة هنا أو هنا تكشف لك حقيقتها..

هناك نصيحة يسدونها للراغبين في الزواج وأجدها حكيمة جدًا: أعط الفتاة قطعة من اللادن ودعها تمضغها.. راقبها بحذر.. سوف تتماسك الفتاة بضع دقائق وتمضغ برقة، ثم تبدأ الفضائح.. سوف تبدأ الانفجارات.. طراك..!.. كراك!.. طراق!.. وتلوي فمها في ميوعة ويتساقط اللعب من شفتيها المليظتين.. باختصار سوف تنسى كل الأقنعة الاجتماعية التي وضعتها.. إن اللادن له قوة كاسحة ولا تستطيع أية امرأة أن تقاومه ما لم تكن أميرة حقًا..

طريقة الأكل كذلك لا تغش: هناك مطربة مصرية اشتهرت بالرقة، وكان أحد الشعراء يهيم بها حبًا.. يهيم بها حتى رآها مصادفة في القناطر الخيرية في شم النسيم.. رآها تلتهم الفسيخ في جشع وتلعق أصابعها.. ثم تهشم البصل وتزدرده كأنها أحد المعلمين في وكالة البلح.. وتقذف في جوفها بأربعة أو خمسة

أرغفة سقطت تماماً من نظره وشفي من عشقه لمحمود والحمد لله..

ذات مرة كنت أتصل بشركة طيران أؤكد حجز رحلة؛ فردت علي فتاة تتكلم بأرستقراطية وخنافة من طرف أنفها، تقول لي:

-"بالتأكيد ي فندم.. لا لزوم للكونفيرميشن لأن البوكنج موجود هنا . الفاوشر معك ويمكنك أن تقوم بعمل كنسيلنج في أية لحظة.. بليز دو.. هانج أون.. "

كانت تجد صعوبة بالغة في العثور على أية كلمة عربية مناسبة..

وبدأت تمليني رقم الرحلة. وفجأة حدث خلل في الكمبيوتر عندها، فراحت تضرب المفاتيح في عصبية. ثم دوى صوتها الغليظ الحلقي كأنها تتشاجر في سوق الخضار:

-"يا دي السخاط!!"

للحظة حسبت لي أنها تستعمل لفظة أدنية أو هولندية لا أعرفها، ثم فطنت أنها تتكلم بالعربية العامية جداً جداً جداً .

أنا لست من حبقة مرفهة أو ثرية ، وقد تعاملت بحكم عملي مع طبقات فقيرة جدًا في أسفل السلم الاجتماعي، لكن دعني أؤكد لك أنني لم أسمع (يا دي السخماط) هذه من أي شخص قبل هذه اللحظة!!.. طبعًا يمكن استنتاج أنها تقول (يا للكارثة!) بطريقتها الراقية الخصة..

في اللحظة التالية ثابت إلى رشدها فعادت تقول:

-"سوري يا فندم.. الشاشة فروزن حاليًا.. لو أنك كولد باك خلال ساعة فلربما.. احم.. شكرًا لاتصالك"

وضعت السماعة وأنا أموت ضحكًا، وقررت أنني لن أتزوج هذه الفتاة بالذات لو قررت أن أتزوج..

صارحت صديقي بهواجسي هذه ، فقال لي في غيظ:

-"وماذا أفعل؟"

قلت له في وقار:

-"إما أن تقنع فانك بالنوم على حبة بازلاء تحت أربع حشايا، وإما أن تعطيها قطعة لادن. أو تراقب رد فعلها لو حدث خلل في الكمبيوتر.. "

لم يبد له أي حل مقنعًا.. حتى فكرة سلاتين سمدو غريبة جدًا عندما يعطيها إياها ويراقبها في حذر كأنه يطعم فرس النهر في حديقة الحيوان..

وجاء الفرج عندما تذكرنا أن شم النسيم على الأبواب.. اقترحت عليه أن يدعو حبيبته لأكلة فسيخ في القناطر الخيرية.. سألني في بلاهة عما إذا كانت طريقتها في أكل الفسيخ سوف تفضحها، فقلت له في غيظ:

-"أنت لم تتعلم شيئًا.. لو قبلت أكل الفسيخ أصلاً فهي تمت لعالم الوحوش ولا تصلح لك يا صاحبي.. "

وحتى هذه اللحظة لا أعرف ما توصل له، لكني أرجح أنه سيخدع نفسه وسوف يتزوجها في جميع الأحوال، حتى لو كانت تلتهم طنًا من الفسيخ مع عشرة أرغفة من الخبز، وحتى لو قالت له بعد الأكل "يا دي لسخمط!".. لأننا لا نرى سوى ما نريد أن نراه.

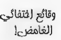

وقائع اختفائي الغامض!

بعد أسبوعين من الذهاب إلى المدرسة في الصف الأول الابتدائي، قررت أنه لم يعد في قوس الصبر منزع وأن السيل قد بلغ الزبى وأي تعبير آخر يروق لك. لقد كرهت المدرسة كالجحيم وصممت على أن هذه نهاية قصتي مع التعليم. لكن ماذا أفعل بالضبط؟

كنت أذهب إلى المدرسة صباحًا ، فكنت أنادي ابن البواب الصعيدي (سعي) ، وهو شاب نشيط في الثامنة عشرة من عمره، يبرز لي من داخل الغرفة ويلف اللفيعة حول عنقه ثم يمسك بيدي قاصدًا المدرسة وهو يلهث من البرد، والبخار الأبيض يتصاعد من فمه ، ثم يتركني عند الباب مع توصية بألا أفعل كذا أو كذا .. وهكذا يبدأ يوم الجحيم حتى الظهيرة..

في ذلك اليوم قررت أن المدرسة انتهت بالنسبة لي. كان الوقت مبكرًا تمامًا وفناء مدرسة الإصلاح الابتدائية المبتل من أمطار البارحة شبه خال من التلاميذ. لا أعرف كيف ولا لماذا قررت أن الوقت قد حان..

بخطوات آلية توجهت إلى بداية الإدارة ومشيت حتى غرفة مديرة المدرسة.. نظرت من الباب فوجدت الغرفة الرهيبة خالية تمامًا. إضاءة خافتة أقرب للظلمة ورائحة عطرية خفيفة في الجو..

في هدوء اتجهت إلى أكبر مقعد في الأنتريه -لوئير الموجود في ركن الحجرة- وزحفت على ركبتي حتى صرت خلفه ثم تكومت على نفسي في وضع القرفصاء وأرحت ظهري للجدار..

كان الباركيه باردًا والجدار ثلجيًا لكنني كنت سعيدًا. بعقل طفل في الخامسة كنت أعرف خطتي جيدًا.. في كل يوم سآتي إلى هنا وأتوارى خلف هذا المقعد إلى أن تحل ساعة الانصراف فأتسلل إلى الخارج وأعود لبيتي! .. هكذا للأبد وإلى أن أصير رجلاً كبيرًا لا يعلو أحد على إرغامه على الذهاب للمدرسة.. هكذا

جلست راضيًا عن نفسي.. ومرت الساعات..

لا أعرف الوقت لكني سمعت صوت الطابور والنوبة ودقات الطبول و(تحيا الجمهورية العربية المتحدة). لا تنس أننا في العام 1967.. ثم سمعت عشرات الأقدام تضرب الأرض متجهة لزنازين التعذيب. ظللت أهنئ نفسي على براعتي.. ويبدو أنني نمت قليلاً.

صحوت من نومي فأخرجت الساندوتش من الحقيبة والتهمته، وعدت أجلس تلك الجلسة المتعبة التي لم أتحملها إلا بالعناد والرغبة في ألا نفشل هذه التجربة.

مر الوقت.. ثم سمعت من يتكلم.. هناك من يزيح الستائر ليجعل إضاءة المكتب ساطعة..

صوت العاملة العجوز الطيبة تقول للرجل إن مديرة المدرسة قادمة بعد قليل..

لم أفهم من الكلام سوى أن المديرة مختفية – ولعلها مختبئة خلف مقعد آخر – وأن هذا الرجل مهم جدًا. إنه ينوي الجلوس.. إنه يتجه إلى.. إلى....

المقعد الذي تواريت خلفه.. آه!.. هناك تفصيل بسيط هو أن ردفيه عملاقان و أن هذه المقاعد تميل للخلف عندما يجلس عليها رجل بدين. هكذا وجدت نفسي كفأر في مصيدة وقد قطع هذا الرجل الماء والنور عني.. ومددت رأسي أنظر له..

كان شديد البدانة وقورًا متأنقًا.. وعلى عينه تلك النظارة السوداء التي كانت تدل على الأهمية في ذلك الوقت. لا أعرف من كان وزير التربية والتعليم في ذلك الوقت لكن لا أستبعد أنه كان هذا!؟..

كانت هذه هي اللحظة التي لم أعد أتحمر بعدها فوثبت من خلف المقعد، وطار الرجل مترًا في الهواء وهو يصرخ:

-"بسم الله الرحمن الرحيم!"

احتاج إلى دقيقة كي يستوعب الموقف.. ودقيقة حتى يفهم أنني طفل في الخامسة..

وقف وسألني محاولاً التظاهر باللطف:

-"اسمك إيه؟"

لم أرد.. حملت حقيبتي في كبرياء وغادرت المكتب أمام ذهوله.

عندما عدت إلى الفصل قوبلت بعاصفة من الدهشة.. لقد كنت هذه هي الحصة الخامسة!.. الكل يسألني أين كنت فأرد في غموض:

-"سباعي.."

لا ضمير لدى الأطفال وهم يجيدون الكذب ويلتذون به.. لهذا أرسلت المعلمة خطابًا لأمي تشكو فيه المدعو سباعي. وفي البيت استجوبتني أمي مرارًا فلم أكن أرد إلا بكلمة واحدة هي:

-"سباعي!"

فيجن جنونها.. لو كان سباعي يتلكأ ويلعب القمار مع أصدقائه فلن يتسبب هذا في تأخيري حتى الحصة الخامسة. الطفل ملاك لا يكذب.. إذن أين كنت يا عم سباعي؟.. العتي يدافع عن نفسه ويقسم بأغلظ الإيمان أنه أوصلني للباب في الوعد المناسب..

طبعًا لم يصدقه أحد.. وظلت علامات استفهام مريبة تحيط به، بينما صار توصيلي للمدرسة مهمة أبي أو أختي. بعد

أسبوعين تركت أسرة سبعي البناية لتعود إلى الصعيد، ولا أعرف إن كان لهذا علاقة باختطافه لي أم لا.. على كل حال عرف الجميع حقيقة القصة فيما بعد وتلقيت علقة لها العجب.

في التسعينات من القرن العشرين ساد مفهوم إيذاء الأطفال أو *Child abuse* في الخارج، وعوقب آباء كثيرون لأنهم عذبوا أولادهم أو تحرشوا بهم جنسيًا، وصار بوسع أي طفل أمريكي أن يسجن أباه ويجد أبًا أفضل لو قال للقاضي إن أباه قبله على خده ثلاث مرات مثلاً. جاء القرن الواحد والعشرون ليكتشف العلماء النفسيون أن معظم هذه القصص ابتكرها الأطفال ولفقوها وبعضهم اعتبرها ذكريات حقيقية وهي ظاهرة (الذاكرة المزيفة) المعروفة. هكذا أعيد الاعتبار لآباء كثيرين ضاعت سمعتهم..

تذكرت قصة سباعي المسكين هذا.. مشكلته هي أن خصمه الكاذب كان في الخامسة من عمره، والأطفال لا يكذبون أبدًا كما تعلم. وما زلت حتى اليوم أتمنى لو وجدته لأقول له: أنا آسف.

هذه هي الوقائع الغريبة والمثيرة لذلك الاختفاء الغامض، ولهذا أطالب القراء بأن يحتفظوا بها ولا يخبروا بها أي واحد ممن لم يشتروا هذا الكتيب..

عاصم

لا أعرف حقًا السبب الذي دفعنا لتسميته بهذا الاسم. (عاصم) ليس من الأسماء المعتادة للقطط. كل قط يحترم نفسه لابد أن يحمل اسم (مشمش) وكل قطة تحترم نفسها اسمها (بوسي)، لكن هذا الاسم العجيب ولد فجأة من دون ترتيب مسبق.

كان هذا الشيء الصغير بحجم قبضة طفل في الخامسة، يرقد جوار إطار سيارة في شارعنا ويصرخ كرضيع بلا توقف بصوت عال رفيع. لا يمكن أن يكون إنسان في مصر لم يسمع صراخه في ذلك الصباح، فلا أجد سوى احتمال أن أمه صماء أو أنها توفيت. تصرفت بلا تفكير وحملت الشيء الصغير في يدي وباليد الأخرى ابتعت له كيسًا من اللبن، وعدت لأتلقى اللوم من زوجتي التي لا تطيق أن تجد علبة ثقاب في غير موضعها. تصور ما سيحدثه هذا الشيطان الصغير من دمار في حياتنا.

وضعت القط الصغير أمامها وقلت لها في هدوء إن بوسعها أن تتخلص منه متى شاءت. طبعًا لكي تفعل ذلك يجب أن تحمل جزءًا من شخصية (أبو لهب) و(فرعون موسى) مع مسحة من (هتلر) و(آل كابوني)..

هكذا سمعت صوت مياه الحوض وصراخ القط بينما زوجتي تعطيه الحمام الأول، ثم تنظفه بمزيل للبراغيث، ثم تفرغ زجاجة قطرة العين الخاصة بي كي تستعملها هي لإرضاعه. ويتعالى صوت لعق الصغير وهو يمتص اللبن من القطارة.

شعرت برضا ونمت سعيدًا لأنني أنقذت هذا الكائن التعس من الموت تحت عجلة سيارة.

المشكلة هي أن زوجتي صارت تكرس وقتها بالكامل من أجل هذا القط الصغير. لدينا أبناء لكنهم كبروا بما يكفي. وأصبت بالذعر عندما وجدت أنها تعود مبكرًا من العمل كي لا يشعر القط العزيز بأنه وحيد.

الآن صار نصف الثلاجة مليئًا بالسمك المجمد المخصص للقط العزيز، ولا يمكنك أن تمشي في مكان ما من دون أن تشم

رائحة السمك المسلوق اللعينة. دعك من رائحة الفضلات طبعًا..

هناك أكثر من وعاء مليء بالرمل مخصص لقضاء حاجة القط، لكن دعني أؤكد لك أن هذا لا يمنع أن تضرب الوعاء بقدمك وأنت شارد الذهن لتتسخ السجادة، دعك من الرائحة طبعًا لأن الرمل لا يكفي لإزالتها.

الوغد الصغير يمرح في البيت.. ينام على فراشي وعلى المقعد الذي أفضله عند مشاهدة التلفزيون، فإذا مددت يدي لأبعده كان رد الفعل كالبرق: بخ خ خ!

وأسترد يدي لأجدها قد تحولت إلى شرائح دامية بحيث يمكن أن تلعب دور البطولة في أي من أفلام الرعب الحديثة. يمكن أن تجلس لتقرأ ثم ترفع عينك فجأة لتجده على المكتب جوارك، يربض على بطنه في وضع تربص كنمر وسط الأحراش، وهو يحرك مؤخرته حركة رحوية بطيئة بهدف ضبط التصويب. وهو يقصد طبعًا تلك الكرة السوداء الراقصة في محجر عينك..

هواية صيد العيون هواية محببة لديه لكن زوجتي مصرة على أنه يمرح لا أكثر.

قلت لها إن القط شرس بحق ومن الواضح أنه ينتمي لأسرة من أسفل قطط الشوارع شديدة التوحش، فقالت لي في حزم:

-"لقد حرم من أمه وهو ما زال رضيعًا. فماذا تتوقع؟"

ثم تعرض علي التخلص منه بمعرفتي.. هكذا أتخيل هذا القط الدال الذي يستحم بالشامبو بينما أنا أحمله في سيارتي إلى أرض قفر، ثم أتركه هناك وهو ينظر لي بعينين متسائلتين بينما أنا أركب سيارتي مبتعدًا..!.. مستحيل!.. لقد قرأت موقفًا شبيهًا في قصة (مومو) لإيفان تورجنيف، وما زال تذكر المشهد يبكيني فماذا عن عمل ذلك في الواقع؟

هكذا أقبل الخدوش واصطياد ساقي وكعب رجلي، وأتحمل.. المشكلة أن لوفد يكبر بسرعة جنونية وسوف يتحول إلى نمر خلال أسبوع. والغريب أنه لا يؤذي أحدًا في البيت سواي، فهو لم يخدش الأولاد قط. معنى هذا أن مشكلته في الحياة هي أنا..

هناك قاتل متعطش للدماء تحت سقف بيتي، ولا أجرؤ على التخلص منه كما أن زوجتي تحبه كثيرًا وترفض أن يؤذيه

أحد. لهذا أحيطكم علمًا : لو وجدتم في الأسابيع القادمة جثتي ممزقة بوحشية وبركة دم تحيط بها، فلا تتعبوا رجال الشرطة ولا تضيعوا وقتهم الثمين.. لفعل قط ودبع حرم من أمه اسمه (عاصم)..

قط آخر

كان هذا القط من أرقى من عرفت. لا أتحدث عن القطط طبعًا بل عن القطط والبشر معًا.

جاءنا وهو صغير السن جدًا انتهى لتوه من الرضاعة، وهو سليل أسرة نبيلة من القطط الرومية تضم بعض اللوردات والبارونات كما قيل لنا. أبيض اللون كالثلج رائع الجمال رشيق أنيق.. وقد شعرنا برهبة ونحن نراه يجلس منتصبًا على مقعد جوار مائدة الطعام المعدة بما عليها من لحوم، وينتظر في أدب أن يقدم له نصيبه فإن لم يحدث هذا فربما مات جائعًا.. كما أصابتنا الدهشة عندما رأينا طفلة في الرابعة من عمرها تحمله من ذراع واحدة وتمشي به في الشقة ، وهو يفضل أن يتدلى كدمية متأرجحة على أن يخمشها أو يعضها.. هذه أشياء تفوق تفكيره..

قلت لنفسي وزوجتي إن هذا القط راق فلا أقل من أن

تعامله كما ينبغي، وهكذا نال القط النبيس معاملة جديرة بأحد أفراد أسرة البوربون.. حمام بالشامبو.. طعام معلب.. أفضل قطع من أية دجاجة أو سمكة نأكلها.. فراش نظيف.. الخ..

عاش القط حياة هادئة محتفظًا بكبريائه وهدوئه، وحظي بأفضل تدليل ناله قط عرفته.. لا أعتقد أنني في طفولتي حظيت بهذا التدليل.. ولو حدث لصرت إنسانًا أفضل بالتأكيد..

على أن عامًا مضى واكتشف القط اختراعًا مذهلاً لم يسمع عنه من قبل: الأنثى!

كان يقف على سور الشرفة يراقب الطريق، عندما تهادت تلك القطة في الشارع وهي تهز مؤخرتها في رشاقة.. قطة بنت بلد حسناء بادية الشراسة تعرف ما تريد وتعرف كيف تحصل عليه، وبطرت تشرفنا للحظة ورمته بسهم أطار صوابه ثم توارت خلف صندوق قمامة..

منذ هذه اللحظة تبدل حال القط ابن الناس..

كانت تجربة الهرب الأولى قصيرة، وتتلخص في أنه فر من الباب ثم ركض على سلم البناية ووثب بين فرجات حديد

البوبية.. وجن جنون زوجتي وهي تتخيله يـركض بـين طـارات السيارات هو الذي لم ير سيارة في حياته. مر أسبوع اعتـبرت فيـه أن هذه القصة انتهت تمامًا حتى انفتحت البـاب ذات يـوم لأجـده يقف في خزي وشيء من الرضا على البـاب، بانتظـار أن نسـمح لـه بالدخول، كما يفعل الأب الذي يفر مع راقصة في الأفلام العربيـة القديمة ثم يعود لأم العيال طالبًا الصفح.

لكن قوانين اللعبـة تغـيرت.. في الشـارع هنـاك براغيـث وهناك جراثيم وهناك قطط وكـلاب مسـعورة ومريضـة.. هكـذا لم يعد من حقه أن يبيت داخل الشقة مع الأطفال، وأعددنا لـه بيـتًا صغيرًا على السلم وصار يأوي هناك ويقضي حاجته في علبـة على سطح البناية..

الفرار الثاني كـان أطول.. وهذه المرة لم يمر دون خسـائر. لقد عاد لنا وقد بدأ يفهم قواعد اللعبة.. الجروح تملأ جلده وهنك عين موشكة على التلف.. لقد خرج إلى الشارع واشتبك مـع قطـط الشوارع، عندها تعلم أن فرصته في البقاء حيًا وسط هـؤلاء ضـعيفة إن لم تكن معدومة..

برغم شماتتنا الواضحة قمنا بتطهير جروحه وضمدناها، ثم عدنا نطعمه وإن تعلم أنه لم يعد مرحبًا به لهذا الحد، وبما أنه رقيق شديد الحساسية فهو لم يحاول أن يفرض نفسه علينا أكثر..

تكرر الفرار وفي كل مرة يعود وقد صار حاله في منتهى السوء.. يوشك هذا القط أن يصير مرجعًا في علم الطب الشرعي أو الإصابات.. لقد كاد عنقه ينفصل والدم يسيل منه في كل وقت. لا أعرف إن كان قد وجد فرصة للمرح الجنسي الذي تمناه لكنه بالتأكيد كان يخرج لتتدرب عليه قطط الشارع باعتباره كيس ملاكمة.. وفي حياتي كلها لم أر قطًا بهذه الحال السيئة حتى بدأت اخشى أن يتفتت على قارعة الطريق كأنه كيس من اللحم المفروم.

لقد تنازل عن عرشه بكامل إرادته، كما فعل (إدوارد) مع مس (سيمسون) من قبل، وهي التي كانت امرأة قبيحة مسنة مطلقة.. هذا القط قد قادته المرأة إلى حتفه.. أفقدته كل شيء، وبالطبع كانت حالته لا تسمح بأن آخذه إلى بيت أحد أصدقائي

ليتزوج قطة نظيفة بنت ناس.. لن يصدق أحد أنه ليس مريضًا بمرض معد خطير..

بالفعل كان مصابًا بمرض خطير، وهو الحب..

لكنه ظل راقيًا شديد الكبرياء ؛ ولم يتعلم من قطط الشارع الشراسة أو اللصوصية.. فقط كان يُضرب في شرف وتعفف كأنه لورد بريطاني في لعبة الملاكمة..

متى فر نهائيًا؟.. لا أذكر..

فقط لم يعد هناك، وقد بحثت كثيرًا عنه حول البيت وفي الشوارع الفرعية فلم أجده ولم أجد جثته لحسن الحظ لا شك عندي في أنه قد مات لكن هذا حدث بعيدًا.

كانت هناك كومة من أوراق الصحف في شارع جانبي أزحتها متوقعًا مشهدًا بشعًا، لكني فوجئت بقطط صغيرة تعوي خوفًا وجوعًا.. قطط بيضاء أنيقة رائعة الجمال.. لا شك أنها اكتسبت الجمال من الأب وسوء الطبع من الأم، وقد سرني أن أعرف أن هذا القط في جولاته الكثيرة لم يكن يتلقى الضرب فقط بل كان يصنع أشياء أخرى! !

الشاردون

أشهر قصة تُحكى عن شرود الذهن

هي قصة إديسون العالم الأمريكي العظيم الذي لم يحضر حفل زفافه. السبب هو انه انشغل في المختبر في تجربة مهمة، وقد بحثوا عنه كثيرًا فاتضح أنه كتب موعد الزفاف في مفكرته لكنه نسي!.. لا أعرف ما قاله لعروسه في تلك الليلة السوداء لكن التاريخ لا يحكي أن فسخ الخطبة قد تم على كل حال. هناك نيوتن عالم الرياضيات العظيم الذي كان جالسًا قرب المدفأة ولا يشعر بالدفء.. هكذا طلب من خادمه أن ينزع المدفأة من الجدار ويقربها منه.. قال له الخادم في أدب:

-"لماذا لا يقوم سيدي بتقريب مقعده من النار؟"

هنا شهق نيوتن، وأعلن أن خادمه عبقري حاضر الذهن فعلاً!.

القصة الأغرب هي (تشسترتون) الكاتب المسرحي

البريطاني الشهير الذي وقف في طابور مكتب البريد ليحصل على حوالة مالية، فلما بلغ الشباك اكتشف أنه نسي اسمه!.. وكان أول ما قاله للموظف المذهول:

-"معذرة يا سيدي.. لكن هل تعرف اسمي؟!!"

يمكننا بسهولة أن نتصور ما قاله الموظف وما فعله

شرود ذهن العبقرية أمر معروف للجميع، وإن كان يسبب الدهشة أولاً.. وكثيراً ما يدفع الناس إلى اعتبار العبقري على شيء من الخبل أو الجنون.. لكنهم بعد ذلك يقبلونه باحترام.

لكنني أعترف أن شرود الذهن لا يدل على العبقرية في كل الظروف، بل قد يدل على عقل خاو تماماً.. وباعتباري من الذين اشتهروا بشرود الذهن، فإنني أقر وأعترف أن أغلب الأوقات التي شوهدت فيها شارداً لم يكن في رأسي أي شيء مفيد، لكن الناس تنظر لي في احترام، وتتصور أنني أنظم قصيدة عصماء أو قصة عبقرية..

أشهر من عرف بشرود الذهن في عالم الأدب هو الأديب المصري (توفيق الحكيم)، لكن المخرج (محمد كريم) جلس معه طويلاً أثناء كتابة سيناريو فيلم (رصاصة في القلب) ولاحظ أن

جزءًا من هذا الشرود إراديًا تعمدًا.. مثلاً لاحظ أن توفيق الحكيم بجلس شارد الذهن وذقنه مستندة على مقبض عصاه، فيقول له محمد كريم:

- "هناك فتاة حسناء سألت عنك أمس.."

عندها يفيق الفيلسوف الشارد على الفور، ويستفسر عن كل التفاصيل. هذا إذن شرود إرادي يفيق منه متى شاء.

الموسيقار عبد الوهاب اشتهر بالشرود الحقيقي، ويقول كل من اقتربوا منه إنه كان يزوم كالقطط طيلة الوقت لأن الألحان لا تكف عن زيارة عقله. أحمد شوقي الشاعر كان شارد الذهن كذلك، وكان يخرج علبة السجائر كل بضع دقائق ليدون على هامشها بضعة أبيات قبل أن تضيع.

على كل حال، يمكنك أن تنجو بشرودك فلا يسخر منك أحد إذا أقنعت الناس أنك فنان.. وهو حل لابد أن تلجأ إليه إذا أردت أن تنجو من مواقف محرجة جدًا..

مثلاً ذات مرة كنت شارد الذهن وقابلت امرأة ذات وجه مألوف على سلم بيتي فهززت رأسي وقلت في وقار متحفظ:

-"مساء الخير"

وواصلت النزول.. فقط بعد ربع ساعة تذكرت أن التي قابلتها هي أختي!.. والله العظيم حدث هذا وليس من تأليفي..

في مرة أخرى كانت زميلة عمل مملة تكلمني بصوت رتيب عن أشياء كثيرة.. فلجأت إلى الحل الأمثل وهو صوت (م م م!) كل ثلاثين ثانية بما يوحي بأنني أتابعها..

-" ...."

-"م م م م!"

-"؟؟......"

-"م م م م!"

وفجأة فطنت إلى أنها تنظر لي في لوم وقد كفت عن الكلام الرتيب، ولما نظرت لها قالت:

-"أنا أسألك!!.. وكالعادة لا إجابة عندك إلا (م م م)"

هذه مواقف محرجة جداً لهذا عليك أن تقنع الناس على سبيل الاعتذار أنك عبقري وأنك تفكر في عظائم الأمور.. عليك أن

تعتذر ثم تخرج ورقة مطوية وتدون فيهـ بعض الكلمـات بلهفة ويد ترتجف . ثم تتنهـد في ارتياح كمـن فـرغ مـن آخـر بيتين في ملحمة الإلياذة.

غرابة أطوار؟.. ربما.. لكنها ليست أغرب من أن تقابل أختك فلا تعرفها، أو تكتشف زميلتك انك لا تسمع حرفًا مما تقول.

وكـ هي العادة، شرود الذهن سوف يجعلني أفرغ مـن كتابة هذا المقال ثم أرسله لزوج حالتي كما أفعل في كل مرة ، بدلاً من إرساله للناشر. لكنني سأزعم لـه أنني كنت أفكر في المقال التالي!

سفارة القطب الشــــمالي

ربما يصعب على الأخوة الخليجيين فهم هذه المشكلة، لكنني أتحدث عن مصر حيث الجو أقرب إلى البرودة أو على الأقل كان كذلك قبل أن يتكفل (الاحتباس الحراري) بحل المشكلة. الظاهرة التي لاحظتها من خلال عملي كطبيب هي أن الناس تخشى البرد جدًا.. تعتقد أنه المسئول عن كل مشكلة صحية تصيبهم، ولكم من مرة فحصت مريضًا في شهر أغسطس والعرق المنهمر من جبيني يوشك على أن يصير بركة صغيرة يغرق فيها المريض، عندها أكتشف أنه يلبس سروالاً صوفيًا كاملاً تحت ثيابه.. وفي الصباح ترى في الشارع ذلك الرجل الذي يلبس معطفًا من الصوف وقد لف رأسه بتلفيعة صوفية سميكة.. كل هذا جميل فيما عدا أننا في يوليو!

البرد هو المسئول عن كل الأمراض من التهاب القولون حتى سرطان شبكية العين.. هكذا يؤمن الناس لو أن أحدهم صحا ليجد لنفسه رأسين وثلاثة أعين لاتهم تيارات الهواء البارد..

أعتقد أن هذه الخبرة تنشأ لدينا من أمهاتنا.. أذكر أن أمي يرحمها الله كانت تصر على أن ألبس بول أوفرين في أيام الحر كانت تشفع هذا بورق الصحف تغلف به جسدي، وهكذا أخرج للمدرسة متصلبًا متخشب الحركة كأنني أول برميل برسلونه للمدرسة، أو أول إنسان آلي مصري.. حتى عندما أجلس في الصف أصدر صوتًا غريبًا كأنه خشب يتهشم.. وذات مرة وجه صديق مشاكس لكمة لبطني فكانت يده تتكسر..

برغم هذا كنت أصاب بحمى أو رشح، عندها تلومني أمي لأنني لم أحترز من البرد بما يكفي..

كبرت وصرت من القوة بحيث لا يستطيع أحد أن يرغمني على لف جسدي بالصحف.. عندها وقفت أمام المرآة وواجهت نفسي بالحقيقة:

- "أنا حراااااار!"

نعم.. لا يوجد مخلوق في الكون يشعر بالحر مثلي. العرق يسيل من جبيني حتى في يناير، ولا أتحمل أن أنام تحت الغطاء في مارس..

لقد قضيت طفولتي مذعورًا من البرد، وحان الوقت كي أنطلق وأعيش حياتي كما أريد.. هكذا ابتعت أجهزة تكييف في كل مكان أتواجد فيه، مع عدد لا بأس به من المراوح. لو دخلت علي في أي مكان لشعرت بالقشعريرة حيث تيارات الهواء توشك على أن تطيرك. هناك عدو عتيد في قصص الرجل الوطواط المصورة اسمه (مستر فريز) أو (السيد صقيع).. هذا العدو كان مرغمًا على أن يعيش في درجة حرارة تقل عن الصفر ، ولهذا كان يعيش في كهف ثلجي ويلبس بزة مبردة.. أعتقد أنني أصلح الناس للعب دور هذا الشرير..

لكنك في مصر حيث لا يسمح لك بأن تمارس كل هذا البرد في حياتك.. هناك مشكلة خطيرة جدًا اسمها (الآخرون).. هناك زوجتي التي تؤمن بأنني سأقتل الأطفال ما لم أقم بإطفاء جهاز التكييف. صديقي الذي يركب سيارتي يكون أول شيء يفعله هو

أن يمد يده لجهاز التكييف ليخفضه. مع التحذير الشهير:

-"ستتعب صدرك بهذه الطريقة"

دعك بالطبع من هؤلاء الحساسين.. وأنا أعرفهم وأشمهم من على بعد أميال. يدخلون أي مكان فيه مروحة فيمدون يدهم على الفور ليغلقوها (لأنها تسبب الصداع).

تتول في حياء إن الطقس حار وتجفف عرقك، فيقولون في ثقة:

-"ستتعب صدرك بهذه الطريقة"

وهكذا تتحول أنت إلى كتلة تعسة من العرق اللزج، ويسيل العرق ليحرق عينيك فتفتحهما بصعوبة، بينما هم في منتهى السعادة والرضا عن النفس..

أشعر وقتها أن هذا الرجل لا يمكن أن يصاب بصداع.. لكي يصب بصداع يجب أن يكون لديه رأس .

نعم.. أنا أمقت الحر وأتمنى أن يعود العصر الجليدي لأخرج من بيتي على منظر الثلوج تكسو الشارع.. لكن لا تأتي

الرياح بما تشتهي السفن، وكل مكان يتحدث عن الاحتباس الحراري والتسخين وثقب الأوزون، بما يعني أن القطبيين سيتلاشيان عما قريب، ونصير نحن مع الأسماك..

ربما يعني الاحتباس الحراري نهاية الحياة كما نعرفها، لكنه بالتأكيد سيسعد كل هؤلاء لأنهم لن يشعروا بالبرد ولن يتعرضوا لتيارات الهواء ولن يصيبهم الصداع..

حتى تأتي تلك اللحظة هل نعرف إن كانت هناك سفارة للقطب الشمالي؟.. وكيف يستخرجون التأشيرة للذهاب هناك؟

هل تأملت نهراً؟

هناك قصة شهيرة جدًا عن خروشوف رئيس الحزب الشيوعي السوفييتي، الذي كان سليط اللسان لا يجامل، وهو أول وآخر رجل ينزع حذاءه ليدق به على المنصة في الأمم المتحدة. عندما زار معرضًا للفن الحديث.. ظل يمشي بين اللوحات صامتًا ثم قال في النهاية:

ـ"هذه اللوحات مرسومة بذيل حمار وأنا لا أقول هذا كناقد فني بل كرئيس اللجنة المركزية للحزب!"

طبعًا عندما تقال هذه الكلمة في أمريكا أو أوروبا فهي لا تعني سوى إحراج الفنان، بينما عنده تقال في بلد شمولي شيوعي فمعناه أن الفنان قد انتهى.. صار بطة ميتة..

الحق إنني عندما أتأمل لوحات الفنانين الجدد الحداثية

أفهم رأي هذا الرجل جيدًا وأضيف أنه من الأفضل إعدام هؤلاء الفنانين جميعًا ليكونوا عبرة لسواهم.. هناك ألوان تنسكب على ألوان وخطوط تقتحم خطوطًا. يستحيل أن تفهم أي شيء أو تشعر بأية متعة. ولقد رأيت على شاشة التلفزيون لوحات رسمها دوفيل، أكثر روعة وإتقانًا من هذه. المصيبة عندما يظهر أحد أساتذة الفنون ليتكلم عن (البنية اللونية في تشيء الموجودات والتعامل الوحشي مع اللون بشكل يقترب كثيرًا من التصوف.. إنه الجدل الذي لا ينتهي بين المادة والروحانيات)..

أبحث في اللوحة عن بنية لونية وتعامل وحشي فلا أجد حتى التعامل الإنسي، ولا أرى أي تصوف في اللوحة.. لا يوجد جدل بين المادة والروح إلا لو كانت المادة تعني المال والروحانيات تعني المشروبات الروحية.. هنا أفهم.. الفنان كان ثملاً ورسم الصورة لأنه محتاج للمال..

المشكلة أنك لا تستطيع أن تعلن هذا.. انتهى العصر السعيد عندما كان بوسعك أن تقول عن اللوحة الرديئة إنها كذلك.. كلهم عباقرة مبدعون وأنا الجاهل الوحيد..

تذكرت قصة جميلة لأندريه موروا تحكي عن فنان مبدع معسور لا يبيع لوحة واحدة من لوحاته. زاره صحفي من أصدقائه فرق لحاله.. اقترح عليه أن يدعي أنه ابتكر أسلوبًا جديدًا في الفن اسمه (الطريقة الحسية التحليلية)..

-"هل يمكنك أن ترسم لي بعض اللوحات تحوي كلامًا فارغًا؟.. مثلاً امرأة جميلة وحولها أوراق مالية كناية عن حب المرأة للثراء.. مثلاً رجل بدين متأنق حوله دموع ودم كناية عن غنى الحرب.. هل تستطيع ذلك؟"

-"بالتأكيد.. "

-"إذن نقد عشر لوحات بهذه الطريقة وسوف أكتب أنا مقالاً عن طريقتك العبقرية وعن معرضك القادم"

وهكذا أنجز الفنان هذا الكلام الفارغ في ليلة واحدة. وجاء يوم المعرض الذي احتشدت باريس كلها لتراه. كان هناك حشد من النقاد الفنيين، فقال الصحفي للفنان:

-"لا تخف.. كلما سألك أحدهم عن معنى (الطريقة النفسية التحليلية) اكتف بأن تنفث دخان الغليون في وجهه

وقل: هل تأملت في حياتك نهراً؟.. سوف يتظاهرون بأنهم فهموا!"

نفذ الفنان التعليمات.. كلما التف حوله نقاد أو صحفيون وسألوه عن مغزى أسلوبه، نفث الدخان في وجوههم وقال: " هل تأملتم في حياتكم نهراً؟.. "

هكذا يصيحون في انبهار:

-"هذا صحيح.. يا له من عبقري!"

انتهى المعرض بعد ما بيعت اللوحات بثمن باهظ، وصار الفنان أهم فنان في باريس..

جاءه الصحفي ضاحكاً بعد رحيل الناس وقال:

-"هل رأيت كيف خدعنا هؤلاء القوم بلوحاتك عديمة القيمة؟"

نظر له الفنان في حزم وقال:

-"هل أفهم من هذا أنك تنتقد طريقتي النفسية التحليلية؟"

صاح الصحفي في غيظ:

-"هلم!.. لا تصدق نفسك.. أنت تعرف أنه لا يوجد شيء اسمه (الطريقة النفسية التحليلية)"

هنا نظر له الفنان طويلاً ثم نفث دخان الغليون في وجهه وقال:

-"هل تأملت في حياتك نهراً؟!!!"

عن شجاعة الجهل

كنت متأخرًا عن ذلك الموعد مع رجل لم أزره في بيته من قبل، وعندما أوقفت سيارتي في تلك الساحة الخالية خارج المدينة بدا لي منظر البيت جديرًا بفيلم رعب.. فقط سوف يخرج من الداخل ذلك الرجل مشوه الوجه الذي يحمل منشارًا ترددياً يريد أن يقطع به أطرافي.. هذا ما ينقص المشهد..

على كل وجدت بابًا مفتوحًا يقود لما يمكن أن يكون مرآبًا خاليًا، فدخلت في ثقة وأنا أنادي الرجل.. هناك غرفة مفتوحة على اليسار دخلتها.. فوجئت بالرجل الذي جئت لزيارته جالسًا خلف مكتب، وقد امتقع وجهه فصار بلون الورقة. وهو ينظر لي في ذهول نظرة أثارت رعبي.. وسأل بلهفة:

-"كيف دخلت؟"

-"وجدت الباب مفتوحًا و.."

عاد يكرر في جنون:

-"كيف دخلت؟"

ثم أمسك بي بيد راجفة باردة واقتادني إلى مدخل الغرفة التي نحن فيها، هنا خيل لي أن أبواب الجحيم انفتحت. هناك كلبان أسودان عملاقان جديران بالأساطير الإغريقية، يبلغ ارتفاع الواحد منهما ارتفاع كتفي بلا مبالغة، وكانا يزأران ويعويان وينبحان واللعاب يتطاير من شدقيهما، والعيون تلتهب بضوء فوسفوري مخيف.. لكنهما كانا مدربين على عدم دخول هذه الغرفة لحسن الحظ..

قال الرجل وهو يشير لهذين الوحشين:

-"هذان كان يمكن أن يمزقاك!.. أنا نفسي أخشاهما ولا أضمن ألا ينقلبا علي!.. كيف دخلت بهذه الجرأة؟.. ولماذا لم تقف على الباب لتناديني كي أدخلك؟"

نظرت للكلبين وتذكرت كيف دخلت وحدي في شجاعة

وثقة وخفة، وقلت بصوت مبحوح:

-"هذه شجاعة الجهل!"

هذا المشهد خالد في الأفلام العربية الكوميدية على كل حال. صديق البطل يلبس ثياب الغوريلا ليثير رعب حبيبة البطل. هنا يحدث خلط وتظهر غوريلا حقيقية هاربة من حديقة الحيوان، لكن البطل لا يعرف.. يعتقد أن الغوريلا الحقيقية هي صاحبه المتنكر ويربت عليها ويحتضنها ويصارعها.. كل هذا نموذج على شجاعة الجهل. ثم تأتي لحظة الحقيقة عندما يرى صديقه يجري مذعورًا من بعيد.. عندها يقلب الموقف في ذهنه.. يبدأ في الفهم، في ذات اللحظة تكشر الغوريلا الحقيقية عن أنيابها وتنقض عليه.. لقد تخصص (فؤاد المهندس) رحمه الله في هذا المشهد..

في رحلة ريفية رأيت مجموعة من أصدقائي يلعبون لعبة سخيفة: علقوا زجاجة مياه غازية فارغة بحبل من غصن شجرة وجعلوها تتأرجح كبندول الساعة. ثم راحوا يصوبون عليها بالبندقية من مسافة بعيدة نسبيًا.. دنوت منهم وقررت أن

أحرب.. ما هذه؟.. بندقية؟.. كيف تطلقون بها؟. ما المطلوب بالضبط؟.. إصابة هذه الزجاجة؟.. دعوني أجرب.. وضغطت الزناد بلا تفكير لتتناثر شظايا الزجاجة في كل اتجاه ويشهق أصدقائي ذهولاً.. عرفت فيما بعد أنهم يحاولون منذ ساعة وأن ثلاثة منهم حاصلون على جوائز في الرماية لكنهم فشلوا!.. لو كنت أعرف هذا كله مسبقًا لفشلت حتمًا..

شجاعة الجهل.. لولاها لما فعلت أي شيء لأننا نتوقع الفشل منذ البداية..

لهذا لم أندهش عندما قرأت عن ذلك الشاب الأمريكي الذي دخل قاعة المحاضرات متأخرًا فوجد على لوح الكتابة معادلة غير محلولة. نسخها وافترض ان هذه هي واجبه المنزلي.. هكذا عاد لداره وسهر حتى أتم حل هذه المعادلة وقدمها لأستاذه في اليوم التالي.. أصيب الأستاذ بالذهول. وطلب الفتى ليخبره بالحقيقة: هذه المعادلة لا حل لها أو هكذا اعتقد أساتذة الرياضيات عبر التاريخ، وقد كتبها الأستاذ على لوح الكتابة كنموذج للمعادلات مستحيلة الحل.. الطالب الذي لم يعرف هذه

لا أعرف مدى صحة هذه القصة، لكنني متأكد من قصة أخرى عن طالب أمريكي عبث لاه، طلب منه أستاذه بحثًا في الفيزياء موضوعه (إمكانية أن تتمكن مجموعة إرهابية من صنع قنبلة ذرية).. هذا البحث كان فرصته الأخيرة قبل الطرد من الكلية نهائيًا.. هكذا عمل الطالب بجد على هذا البحث وسهر كثيرًا جدًا . في النهاية تمكن من تقديم البحث لقسم الفيزياء بعد أسبوعين، وكل همه ألا يرسب نهائيًا ويطرد من الكلية. بعد يومين فوجئ بمن يزورونه من رجال *CIA* ورجال *FBI* ومهمتهم معرفة هل هناك جهات أجنبية قدمت له معلومات بصدد هذا البحث؟.. لقد توصل الفتى بالفعل إلى طريقة عمل القنبلة الذرية!.. وبالطبع صودر البحث وإن سمحوا للفتى بأن يكتب كتابًا عن قصته هذه دون ذكر تفاصيل. هذا الخبر كان مشهورًا جدًا في الثمانينات وكتبت عنه الصحف كلها. الفتى الذي كان يجاهد كي لا يرسب توصل إلى اللغز الذي تدفع أجهزة المخابرات في العالم كله الملايين كي تعرفه..

العبرة الأخلاقية من هذا المقال؟.. أنا أكره المقالات التي تكتب من أجل عبرة أخلاقية ما، لكنها على كل واضحة تمامًا هنا.. يجب أن نتحلى بشجاعة الجهل ولا نفكر في مدى صعوبة ما نحن بصدده، ولا بعدد من فشلوا قبلنا.. هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة للنجاح، أما لو حاصرتنا أشباح المخاوف قبل أن نبدأ فلسوف تخرج تلك الكلاب السوداء المفترسة لتمزقنا قبل أن نخطو خطوة واحدة!

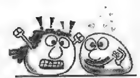

رانيه تحبني

نعم يا عمي.. (رانيه) تحبني.. أنا مؤمن بهذا..

نحن متزوجان منذ خمسة أعوام، وقد منحتها كل شيء يمكن أن يمنحه رجل بلا جنحين ولا خياشيم لزوجته. الآن هي غاضبة وتقيم بشكل مستمر عند والدتها، ولا أعرف السبب لكنني أرجح أنها تحبني فعلاً، وما هذا التصرف إلا نوعًا من الدلال المبالغ فيه..

نعم.. هناك موضوع الصور المشتركة لنا التي قامت بقصها بالمقص بحيث تزيل الجزء الخاص بي.. هذه نقطة لصالحك، لكني أؤكد لك أن هذا لا يعني أنها تكرهني.. أعتقد أنها أرادت

التخلص من هذه الصور، ولم يهن عليها أن تلقي بصورتي في القمامة لذا احتفظت بصوري في موضع خاص ثمين..

(رانية) مولعة بالإنترنت.. تقضي الساعات أمام برامج الشات وتغلق الشاشة عندما أدخل.. أنا لا أفهم في الكمبيوتر لهذا أعجب كثيرًا بقدرتها على التعامل مع هذا العلم المعقد.. هل تلومني على ذلك أيضًا؟

(رانية) مولعة بالأدب لهذا تكتب خطابات طويلة جدًا، ثم تملأ أناملها بالعطر وتنثرها على الرسالة.. هل تلومها على ذلك كذلك يا عمي؟.. هذا اهتمام أدبي حميد، وأدباء كثيرون في التاريخ كانوا يعطرون الورق الذي يكتبون عليه.. اهتمام شديد بقدسية الكلمة، فلماذا توجه لها اتهامات بهذا الصدد؟. بالطبع أنا لا أقرأ محتويات الخطابات لأنها خصوصية.. هل تتوقع مني أن أفعل ذلك؟

أمها تقول لي إن (رانية) تريد الطلاق وإن عريسًا جاهزًا ينتظر هذه اللحظة ليفوز بها.. أمها تقول لي ألا أتصل بالبيت ثانية.. أمها تقول لي: "فلتفعل ما تريد لكنك ستطلقها في

النهاية". أقول لك : منذ متى أحبتني أمها؟.. منذ أيام الخطبة والحب الأول وأمها تكرهني كالجحيم . لكن ماذا عن رأي (رانية) نفسها؟.. أنا أرى أن (رانية) جوهرة وسط الغبار.. وعلي أن أمد يدي لأستعيدها..

تذكرني بقصة الحادث؟. عندما اصطدمت سيارتي بتلك الشاحنة العملاقة فتحولت إلى علبة تبغ أطبق عليها رجل مجنون قبضته حتى هشمها. كانت رانية مذعورة جدًا وراحت تبكي أمام باب المستشفى ثم سقطت على الأرض فراحوا يرشون الماء على وجهها.. كانت تردد بلا انقطاع:

ـ"السيارة جديدة ولم تقطع أكثر من ألف كيلومتر.. السيارة جديدة!"

بالطبع هي ليست قلقة على لسيارة.. لا تكن طفلاً.. هي قلقة علي لكن الصدمة جعلتها لا تعرف ما تقول..

حتى ذلك اليوم الذي ابتلعت فيه بطريق الخطأ ذلك الخاتم.. قالت لي في رعب: "يجب أن ينزل هذا الخاتم بأي ثمن!". لا تقل لي من فضلك إنها كانت خائفة على الخاتم.. هذه

مسالمة.. هل تذكر مدى قلقها وهي تروح وتجيء أمام الحمام بانتظار لحظة نزول الخاتم واستعدته؟.. كانت قلقة علي فعلاً..

خلافات بسيطة في الرأي بيننا لا تفسد للود قضية.. مثلاً أنا أريد قضاء عطلة الصيف في تركيا.. هي تريد الطلاق!.. كما ترى يمكن تقريب وجهات النظر لنصل لاتفاق مشترك..

عندما جئت أنت في تلك الليلة يا عمي لتصلح بيننا، ظللت تصغي في صبر لعشرات المواضيع السخيفة التي لا تكف هي عن ستعادتها والشتائم في شخصي ، وشربت عشرات أقداح القهوة والحيرة على وجهك. في النهاية وقد اقترب الفجر نهضت وقلت وأنت تضحك:

-"إنها تهيم بك حبًا.. هذا واضح.. هيء هيء!.. إنها فقط تتدلل!"

وبادرت بالفرار بجلدك حامدًا الله على سلامتك.

لكن في المرة التالية – بعد خروجك من العدسة المركزة بسبب ارتفاع الضغط الناجم عن كل هذه القهوة – قلت لي إن (رانية) لا تحبني وإنه من الأفضل أن أتخلص منها أو أتركها

تتخلص مني. ما سبب تغير وجهة النظر بهذا الشكل؟.. هه؟

أسمع أنها لا تكف عن البكاء، وأنها تتردد على الدجالين الذين يتنعمونها بتسخير الجان للتخلص مني، وسمعت أنها تهدد بالانتحار لو لم أطلقها.. هل تصدق هذا الهراء؟..

إن رانية تحبني يا عمي.. أعرف هذا وأؤمن به.. فقط هي تسرف في الدلال، وسوف ينتهي هذا كله وترتمي في أحضاني وتخبرني كم أنا زوج ظريف حبوب..

سوف ينتهي هذا كله..

لكن أين ومتى وكيف؟.

العقرب الإلكتروني

علاقتي بجهاز الهاتف المحمول علاقة معقدة جدًا، قوامها الشك والتوجس والكراهية المتبادلة. أعرف أن هذا الجهاز الكريه سوف يقتلني يومًا ما بضغطه اللحوح على أعصابي، وهو يعرف أنني أنتظر أي خطأ له كي ألقي به في أقرب علبة قمامة أو على الأرض، توطئة لأن أحوله إلى دقيق صالح لصنع أول رغيف رقمي في التاريخ..

أشعر بأنه عقرب في جيبي ينتظر الفرصة ليلدغني.. لا أعرف متى ولا كيف.. فقط سوف يفعل هذا وهو يعزف لحنًا قصيرًا مرحًا..

هكذا نمشي.. نبدو لمن يرانا صديقين لا يفترقان، لكننا في

لحقيقة نكره بعضنا بجنون..

لا أعرف متى ولا كيف اشتريت هذا الجهاز. كان كل الناس يحملونه وفي يوم من الأيام قررت أن أبتاع واحدًا لزوجتي، لكنها أعلنت أنه قبيح وشكله منفر وأنها تخجل من إخراجه أمام الناس أو سماع رنينه. هكذا وجدت نفسي احمل الجوال للمرة الأولى في حياتي..

مع لوقت غدت الحياة أكثر تعقيدًا وتشابكًا بحيث صار هذا الجهاز مهمًا فعلاً. عليك أن تقبل به أو تبقى في الظل لا تعرف شيئًا عن أحد ولا يعرف عنك أحد..

منذ ذلك الحين أحاول التخلص منه وفي الوقت نفسه لا أجرؤ على ذلك..

هناك أولاً مشكلة دائمة: جهازك المحمول قديم وبال وفضيحة في أي وقت. أسأل من يفهمون هذه الأمور فيحك الواحد منه ذقنه ويقول: "أفضل نوع هو بوكيا 25424895346898 *LMSDH*".. إنه ممتاز..

هكذا أشتري الجوال المدعو بوكيا 25424895346898

LMSDII وأقضي أسود ليالي حياتي في قراءة كتيب التعليمات. الجهد الذي أحتاج له يقترب من الجهد اللازم للتحكم في أحد أقمار ناسا الصناعية. في النهاية أمشي بذلك الوغد في جيبي أحضر محاضرة أو ندوة فيدق الهاتف.. أخرجه وأتكلم.. هنا يبدو الذهول على الوجوه.. كيف يحمل مثل هذا الجوال الرخيص الرديء؟. إما أن يكون بخيلاً أو مجنونًا أو – على الأقل – سفيهًا..

ثم يأخذني أحدهم إلى جانب ليقول لي في خجل وتهذيب: "بصراحة ده مش مقامك". إن الحياة معقدة بما يكفي، فلا يمكن أن نزيدها تعقيدًا بجوال حقير مثل هذا، وأنا رجل محترم أو هكذا كان يحسبني حتى رأى هاتفي.. وينصحني بشراء الجوال المدعو جودزيلا *F4667Dj9iBBC78-L3* فهو مناسب للوني عيني..

المشكلة أن الجوال جودزيلا *F4667Dj9iBBC78 L3* يصير قديمًا مخجلاً بعد خمس دقائق من شرائه. هكذا تكتشف أن عليك شراء عقرب أحدث كل خمس دقائق.. هناك هواتف جوالة

حدشة تحجر لك مو عند السفر، وتشري لك المجتر والجريدة، وتعد لك الإفطار ، وتأخذ العيال والمدام في نزهة بدلاً منك.. في مصر هناك جوالات تقف في طابور الخبز وتبتاع لك الفول والطعمية صباحًا..

الخلاصة أن الهاتف الجوال صار أقوى مني.. صار التخلص من حياتي أسهل بكثير من التخلص منه، وقد جربت عدة مرات أن أنساه في مطعم.. في كافتيريا.. في مسجد بعد الصلاة.. وفي كل مرة آمل أن يضيع لتكون حجتي قوية أمام الناس ونفسي، فتوصلت إلى هذه الحقيقة.. سرقة الجوال لا وجود لها في العالم.. هناك من سيلاحقك جريًا وهو يحمل الجوال، ثم يتوقف لاهثًا وابتسامة على وجهه، والعرق يغمر جبينه:

-"الوبايل يا أستاذ!"

هناك من يحتفظ به حتى تدخل المصلحة الحكومية أو المسجد مرة أخرى، ليصيح في انتصار وهو يفتح الدرج أو خزانة المسجد:

-"ابن حلال!.. لقد نسيت الموبايل!"

أمانة تفوق الحد فعلاً، لهذا أندهش كلما سمعت أو قرأت عن فلان أو فلان اللذين ضاع منهما الهاتف الجوال.. كأنهما يعيشان في عالم خيالي جميل تضيع فيه هذه الأجهزة الكريهة..

أما عن تجاهل رنين الجوال فيجلب عليك سخط الجميع.. سرعان ما ينظر لك الجميع في حدة كأنك أحمق أو (مسطول) وينتظرون منك أن ترد. لو أخرسته لراح يئز كالدبور في جيبك حتى تجد أنك لا تشعر بجانب صدرك أو جانب فخذك حسب الجيب الذي اخترته، ثم يجدك من كان يتصل ويبدأ بالصراخ متهماً إياك بالوقاحة والتعالي لأنك تجاهلته.

الجوال يمتص ميزانية البلد و90٪ من استخدامه يتم في كلام فارغ، فلا تزعم من فضلك أن كل المكالمات مهمة وإلا فنحن أمة من العلماء ورجال الأعمال. لكن أحداً لا يقدر على الخلاص منه.

جرب أن تحاصر في مصعد في منطقة نائية مع أربعة قتلة، نوبة قلبية توشك على قتلك، بينما تنتظر في الخارج سيارتك التالفة، ومعك صديق ينزف.. جرب الجوال وقتها وقل لي إن كان يعمل أم لا!..

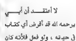
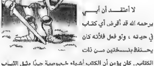

فن إقراض الكتب

لا أعتقد أن أبي يرحمه الله قد أقرض أي كتاب في حياته ، ولو فعل فلأنه كان يحتفظ بنسختين من ذات الكتاب.. كان يؤمن أن الكتب أشياء خصوصية جدًا مثل الثياب الداخلية والزوجة وبطاقة الهوية.. لا تصلح إلا لصاحبها ولا يمكن أن تقرضها إلا لو كنت مجنونًا .

كان كذلك يؤمن بأن الأبناء يأتون العالم كي يبددوا الثروات التي تعب الآباء في جمعها، ومن ضمن هذه الثروات الكتب..

لم آخذ كلامه بجدية إلا عندما وقفت أمام مكتبتي التي هي مكتبته مع إضافات قليلة مني، فوجدت أرففًا بأكملها قد

خلت من محتوياتها بسبب الإقراض..

معظم الناس يعتبرون أن كلمتي (استعارة) و(أخذ) كلمة واحدة، والتفرقة بينهما نوع من التزيد اللغوي لا مجال له؛ لهذا يقف الواحد من هؤلاء أمام مكتبتي – إذا قرر زيارتي – وتلمع عيناه بالخاطر الجديد: لقد قرر أن يكون مثقفًا فجأة!. هكذا! ينقب بين صفوف الكتب وينتقي هذا الكتاب.. وهذا.. وذاك.. فجأة صار مهتمًا بأدب أمريكا اللاتينية وتاريخ جائزة نوبل والتركيب الإداري لجهاز الموساد وفنون زراعة الأرز في الملايو وعلم السيبرنية.. في النهاية يضطر إلى أن يستخدم كيسًا من البلاستيك، لدرجة أشعر معها أن الأمر يتعلق بشراء طماطم من السوق لا اقتراض كتب..

"-لا تقلق.. أنا أحافظ على الكتب جيدًا.. "

يكررها في كل مرة وهو يتجه لاهثًا إلى الباب حاملاً هذا الكنز ثقيل الوزن..

الآن مر شهر وشهران دون أن يعود أي كتاب.. أتصل به لأقول في خجل إنني أطمئن فقط على كون الكتب راقت له. يتساءل

في حيرة: أية كتب؟

في النهاية يتذكر فيبدأ في الرثاء لنفسه لأنه كان مشغول لا يجد الوقت الكافي ليأكل فما بالك بالقراءة؟.. سوف تعود كتبك.. لا تخف.. أنا أحافظ على الكتب جيدًا..

شهر . ثلاثة أشهر.. الآن صارت الكتب حقًا مكتسبًا له بحكم التقدم، وصرت أنا سمجًا كالبراغيث.. أسأله وأنا أجفف العرق على جبهتي عن مصير الكتب فيهتز ضحكًا، وينظر لي نظرة طويلة ساخرة قاسية.. لقد تغيرت النفوس.. لم يعد الإنسان قادرًا على تحمل أخيه الإنسان..

أشعر بخجل شديد من نفسي لأنني جرحت سلامه النفسي ولأنني متلهف على كتبي إلى هذا الحد، بينما لديه مشاكل لا تنتهي ولا وقت عنده لهذا السخف..

في النهاية يتحول الأمر إلى وغد لحوح – هو أنا – لا يكف عن تسول شيء ليس من حقه. ويحاول صديقي النبيل أن يعاملني بالحسنى وألا يجرح مشاعري لكنني بصراحة أضغط عليه أكثر من اللازم. في النهاية ينفجر في:

-"هي مجرد كتب.. و أنت لن تفسد صداقتنا من أجل بضعة كتب.. بصراحة لا أذكر أنني أخذت أية كتب منك ولا أذكر مكانها، لكن هذا لا يكفي كي تجعل حياتي جحيماً !"

هكذا أتلقى درسًا قاسيًا.. لا تضغط على أعصاب الحليم أكثر من اللازم.. الحق إنني سعيد الحظ لكون هؤلاء العقلاء شديدي الحلم أصدقائي..

مؤخرًا جاءني صديق تم انتدابه للعمل في منطقة صحراوية نائية. صديقي هذا طراز آخر من المقترضين.. هؤلاء الذين يقسمون أغلظ الإيمان على أنهم أعادوا لك الكتب التي اقترضوها وأنت تؤكد العكس.. وبما أنه لا يوجد إثبات وأنت لم تستكتبهم إيصالاً فإنك تبتلع غيظك وتصمت..

قال لي صاحبي متوسلاً:

-"سواء كنت تقبل إقراض الكتب أم لا، فعليك أن تقرضني مجموعة محترمة وإلا قتلني الملل.. أريد مجموعة ممتعة من الروايات.."

رققت لحاله من ثم انتقيت من مكتبتي رواية (إيفانهو)

للسير (والتر سكوت)، وحجمها يقرب من حجم دليل هاتف الصين، وقلت له إنها رواية ممتعة وسوف يقضي معها أسعد الأوقات.

عندما عاد بعد ستة أشهر أخرج لي الرواية من حقيبته، ونظر لي بعينين جاحظتين وقال:

-"إليك روايتك الكابوس!.. لقد قضيت أسود ساعات حياتي معها.. ما لي أنا والفارس النبيل فلان الذي ينتظر في الغابة قدوم الفارس علان ليختبر ولاءه للملك و.. هذه قصة لا تنتهي!.."

قلت له:

-"بالضبط! .. هذا ما قصدته.. لو أقرضتك رواية مسلية لانتهت خلال ثلاثة أيام، بينما هذه الرواية المملة اللعينة تحتاج إلى حكم بالمؤبد كي تنتهي منها.. عرفت أن ستة الأشهر ستنتهي وأنت لم تفرغ من أول مائة صفحة بعد. أضف لهذا أنني أفقدتها ولن يشكل فقدها أية خسارة بالنسبة لي..!"

على كل حال لم يبق في مكتبتي إلا الكتب المملة والكئيبة

وخامدة الذكر مثل يفانهو وسواها، لهذا وصلت إلى حالة السلام النفسي ولم يعد أحد يقترض أية كتب مني على الإطلاق.. هل ترغب في اقتراض مجموعة كتب تشرح بالتفصيل تطور صناعة المطاط في فيتنام؟.. لا مشكلة عندي.. خذها متى شئت فأنت صديقي.. أنت أخي..

رجل غير أناني

هو من أكثر الناس توترًا وخوفًا من المرض. يتصل بي خمس مرات كل يوم ليسأل عن تلك العقدة اللمفاوية التي وجدها تحت ذقنه، أو عن سبب عدم استطالة ظفر قدمه اليسرى ليماثل اليمني، أو عن المذاق المر الذي يشعر به لدى شرب القهوة. لو لم يجدني على الهاتف الأرضي يطلبني على الجوال.. فإن لم أرد طلب الجيران وأوصاهم بجعلي أرد. أحيانًا يفعل كل هذا في وقت واحد وأقسم بالله أنه فعلها.. ولكم فوجئت بالجوال يرن والهاتف الأرضي يرن وجرس الباب يرن، فلا أعرف أيهم أهمل، فقط لتخبرني جارتي أن فلانًا يريدني بالحاح.. كيف يفعل ذلك؟.. هل يطلب رقمي بأصابع قدميه؟.. أرفع السماعة فيصيح في رعب:

- "أنت تتجاهل الهاتف بينما أنا أحتضر! !.. منذ قليل فوّت قلبي ضربة.. يجب أن تأتي لداري حالاً!"

هكذا تعلمت أن أقر منه فراري من الأسد لأن المصابين بوسواس المرض قادرون على إصابتك بالجنون، مع أنه في ذات يوم أرسل لي رسالة بالبريد الإلكتروني تقول بهدوء:

-"هل توجد علامات مخبرية على التهاب الزائدة؟"

انتظرت بضع ساعات ثم كتبت له أن نعم. بعد ساعات رد علي قائلاً:

-"زوجتي تعاني ألماً في موضع الزائدة.. أفكر أن أجري لها هذا الاختبار صباحًا.."

قلت له إن هناك مختبرات تعمل طيلة الليل، ثم إن عليه أن يتلب رأي جراح. بعد نصف يوم عاد يسألني بالبريد الالكتروني:

-"إنها تفرغ معدتها مرارًا.. هل ترى أنها الزائدة فعلاً؟"

جن جنوني.. وكتبت أقول له إن الزائدة من الطوارئ الطبية.. إما زائدة فعليه أن يهرع للمستشفى، أو لا زائدة فليهدأ ويتركها. كنت أتوقع أنه فحص زوجته وأجرى لها الاختبارات المعملية اللازمة أمس، لكن هو ذا يوم كامل مر من

دون أن يعمل أي شيء..

بعد خمس ساعات كتب لي بالبريد الالكتروني إنه سيجري الفحوص غدًا فقد تأخر الوقت..

هذه المرة رفعت سماعة الهاتف، وانفجرت في سيل من السباب.. أنت توقظني من نومي وتوقظ الجيران ولا تكف عن طلب أي رقم هاتف تعرفه، لمجرد أن سالفك الأيمن ليس بطول الأيسر، والآن قد يكون الأمر خطيرًا لكنك لا تريد أن تتكلف ثمن مكالمة، وقضيت يومًا ونصف اليوم تراسلني بالبريد الالكتروني ولم تعمل أي شيء على الإطلاق.. هل تعرف السبب؟

سألني في حيرة:

-"ما هو؟"

قلت في جنون:

-"لأن المريض هذه المرة ليس أنت.. إنه شخص ليس ذا أهمية على الإطلاق.. زوجتك.."

قال لي:

-"فقط شعرت ان الأمر ليس بهذه الخطورة.. لم أرد أن أجعل الأمور درامية"

-"أنت تجعلها درامية جديرة بشكسبير عندما يتعلق الأمر ببقعة خلف أذنك.. "

غضب مني كثيرًا واتهمني بأنني أتهمه بالأنانية وهو منها بريء.. لكنني كنت أعرف أنني محق في اتهاماتي. وتأكدت ظنوني عندما راح جرس الهاتف والجوال وجرس الباب يدقون بلا هوادة في نفس الليلة.. رفعت السماعة فسمعته يصرخ وهو موشك على البكاء:

-"لقد انتهيت!!.. كنت أدخل الحمام مرتين يوميًا فصرت أدخله مرة واحدة.. هل تعرف طبيبًا بارعًا يجيد علاج سرطان القولون؟!!"

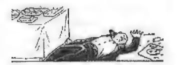

سر الصنعة

عندما كنت أعيش وحدي تعلمت الطهي، وأجدته إلى درجة تثير حفيظة نساء كثيرات. المرأة لا تتحمل فكرة أن يستغني عنها الرجل، ثم يجيد عمل شيء أفضل منها. لكن بدأ كل شيء في ذلك اليوم المشئوم الذي عدت فيه للدار حاملاً بعض السمك المشوي، فقابلني جاري الأستاذ (عزام) ومعه زوجته الودود شديدة الظرف والأمومة. لسبب ما تعتقد هذه السيدة الكريمة أن الأعزب في مأزق خطير، ولا مناص من أن يجدوه جثة متعفنة وحده في شقته في أية لحظة. كانت رائحة السمك كافية ليعرفوا أنني أحمل سمكًا.. هنا سألتني الزوجة في ذعر وهي

تضرب صدرها:

-"مسكين.. هل ستطهو الأرز بنفسك؟"

وسرعان ما كانت تتركنا وتقفز داخل شقتها، ولم يستغرق الأمر سوى ثلث سعة وسرعان ما وجدت إناء طهي مليئًا بالأرز الساخن يحمله زوجها لي.

أناس ظرفاء.. قلتها لنفسي.. وجلست لآكل لكن يا فرحة ما تمت. اكتشفت أن هذا أسوأ أرز ذقته في حياتي.. عجين كريه مقيت له رائحة خبيثة وفيه أشياء تتحطم تحت أسنانك. هكذا تركت هذا كله وأكملت وجبتي بالخبز، وأنا أشعر بالحزن لأنني لم أتأخر دقيقة أو أبكر دقيقة.. ما كنت لأقبل الزوجة المتحمسة، ولكنت قد أعددت الأرز الرائع الذي أجيد عمله.

في اليوم التالي قبل موعد الغداء وقبل أن أعد الأرز، ظهر الأستاذ (عزام) حاملاً إناء طهي، وقال لي:

- "زوجتي أقسمت ألا تعد أنت الأرز ما دامت في عروقها حياة.. لو سمحت هات إناء أمس"

لم يكن الأرز أفضل حالاً مما كان أمس.. هذه سياسة

متعمدة إني، وقد شعرت بأزمة ضميرية إزاء هذا الكرم كله.. أنا وغد شرير لا خلاق له، لكن أرز السيدة كريه جدًا كذلك!!!

تخلصت من الأرز في القمامة آسفًا، ونسيت أن جامع القمامة كسول وأن القطط تحب لعبث هكذا في اليوم لتالي رأيت السيدة الكريمة على الدرج، وهي تشير إلى كومة من الأرز المطهو المبعثر على مدخل شقتي، وقد خرج كله من كيس ممزق. تسألني بعينين شبه دامعتين:

ـ"لماذا تخلصت من الأرز في القمامة؟. هل لم يرق لك؟.. قل الحقيقة.. "

بالضبط بالطريقة التي تلوم بها ممثلات السينما الرجال الذين ضيعوا مستقبلهن. أخبرتها بأذنين محمرتين وعينين زائغتين أنني مجنون بالأرز الذي تعده، وأن هذا الأرز في القمامة هو الأرز الذي أعددته أنا قبل تلقي هديتها. هكذا ابتسمت في لطف، ومنذ ذلك اليوم تحولت حياتي لكابوس بسبب إناء الأرز الذي يصل لبيتي كل يوم وقت الغداء. صرت أضع الأرز في كيس داخل كيس وأتسلل في الظلام لأتخلص منه في بقعة مهجورة لا

يراني فيها أحد، كأنني قاتل يدفن رأس ضحيته. أطهو الأرز في حذر حتى لا تنبعث رائحة ما أو يدوي صوت أرز يُطهى - لا أعرف ما هو صوته بالضبط لكنها تعرف - فتسمعه هي. ثم أضيفت لواجباتي مهمة غسل إناء الأرز كل يوم وإعادته لها. صرت كذئبٍ متسللاً عاليه الظلال والليل، وتعلمت ألا انظر لأحد في عينه حتى لا يدرك أنني أتخلص من الأرز ولا آكله. بينما السيدة الطيبة تكرر في كل مكان.

-"إنه لا يحب سوى الأرز الذي أعده أنا!!"

لم أتخلص من هذا الكابوس إلا بعد أن تزوجت وفارقت البيت، وبعد ما كنت أفكر في الهروب من البلاد أو دخول السجن: لكنها تتصل بزوجتي من حين لآخر تدعوني لزيارتها مؤكدة أنها تنتظرني بالأرز الذي أحبه!!. طلبت منه زوجتي أن تعلمها طريقة عمل هذا الأرز العبقري فقالت في غموض:

-"هذا سر الصنعة يا حبيبتي!!"

صنعة الكلام

تثير إعجابي جدًا الطريقة التي يفسر بها الناس كل ما يحدث لهم؛ بحيث يتبين دومًا أنهم شديدو النقاء والشفافية وعلى حق دائمًا. في مصر يقول المثل الشعبي (النار متحرقش مؤمن) أي أن الأذى لن يصيب المؤمن أبدًا، وهو كلام جميل لو تجاوزنا عن حقيقة أن قائل هذا المثل يتحدث عن نفسه دائمًا. بعد قليل تتمسك النار بكم لرجل أو قميصه، فيقول وهو يدهن مرهم الحروق: (المؤمن منصب)!

أي أن البلاء يحدث للمؤمن كثيرًا!.. الخلاصة أن الناس لا تصمت أبدًا.. دائمًا هناك تفسير يثبت أنهم رائعون.

كانت زوجة صديقي تؤمن – بلا سبب – أنها تقية نبيلة ترفرف بجناحيها، بينما زوجها – بلا سبب أيضًا – وغد زنيم لابد أنه يمت بصلة قربى لأبي لهب أو أبرهة الأشرم. كل

تفكيرها كان يدور في هذا النطاق.. وعندما أصيب زوجها بمغص كلوي ودخل المستشفى لم تستطع أن تخفي علامات التشفي؛ وقالت لي بصوت مسموع وهي تقف على باب غرفته:

-"الله تعالى يمهل ولا يهمل.. إنه ينتقم لي من هذا الرجل الذي آذاني كثيرًا"

حاولت إقناعها أن المرض يروح ويجيء لأسباب فسيولوجية.. وحتى الصالحين من الرجال يمرضون، وإلا لكانت لدينا قاعدة تقضي بأن كل مريض وغد زنيم.. لكنها قالت في إصرار:

-"بل هو انتقام إلهي لي"

شفي زوجها وغادر المستشفى، يبدو أنه لم يكن وغدًا بما يكفي ليموت، وعلى كل حال سوف يساعدها هذا على تكريس قاعدة جديدة لديها؛ هي أن أسوأ الأوغاد طرًا هم الذين لا يموتون بسهولة.

بعد أسبوع اتصلت بي الزوجة لتخبرني أنها تشرب كثيرًا وتبول أكثر. لا تنس أنني طبيب. نصحتها بتحليل الدم لمرض

السكري.. بعد أيام عرفت أنها مصابة بالداء فعلاً. بدأت العلاج.. وبعد شهر شعرت بألم في صدرها فذهبت للطبيب الذي أخبرها بأنها مصابة بضيق في الشرايين التاجية..

طبعًا لا د عي لأن أقول إن ذات الطبيب شعر بشيء غريب في ثديها الأيسر ونصحها باستشارة جراح.. الجراح رأى أن هذا الشيء مريب وطلب استئصاله لفحصه فقد يكون ورمًا خبيثًا.

ذهبت لزيارتها في المستشفى فوجدتها مسرورة جدًا.. قالت لي:

-"هل رأيت؟.. إن الله تعالى لا يريد لي أن ألقاه بأي ذنب على كاهلي، لذا يخلص ذنوبي بهذه الأمراض.. إنه بلاء والسبب هو أنني شفافة نقية.. "

ابتلعت ريقي وقلت في حذر:

-"كنت أحسب الأشرار فقط هم الذين يمرضون حسب كلامك..

قالت دون أن تعي قصدي:

-هناك أشخاص يمرضون لأنهم أوغاد، وأشخاص يمرضون

لأنهم ملائكة.. "

-"وكيف يعرف الإنسان أنه هذا أم ذاك؟"

الإجابة معروفة طبعًا.. لو كنت أنت هو أمت فمن المؤكد أنك نقي النفس رائع، أما لو كنت شخصًا آخر فهذا عقاب سماوي تستحقه بالتأكيد..

جميل جدًا.. أحب هؤلاء الناس الذين يفهمون كل شيء ولا توجد عندهم أسئلة من أي نوع. عرفت فيما بعد أنها لا معاني ورمًا خبيثًا وذهبت أزف لها الأخبار الطيبة في التقرير، فتهلل وجهها وقالت:

-"كنت أعرف أنني نقية النفس ولا يمكن أن أصاب بالسرطان أبدًا"

سألتها وأنا اضغط على أعصابي:

-" حسبت المرض يطهرك من آثامك، وأنت سعيدة به.. دعك من أن معنى كلامك أن الأشرار فقط يصابون بالسرطان وهذا كلام فارغ"

راحت تبحث عن منطق يخرسني فلم تجد.. في النهاية ضق صدرها وبدأت تتوتر.. وقالت لي :

-"ألا تجد ما يشغلك في الحياة سوى أن تحرق دمي وترفع معدلات السكري لدي؟"

قلت لها وأنا اخرج من الباب:

-"نعم.. هناك أشياء كثيرة تشغلني، ومن بينها كتابة هذا المقال.. يمكنك كذلك أن تضيفي اسمي إلى قائمة المصائب التي يجب أن تواجهيها لأنك شديدة الطهر والنقاء.. "

وأغلقت الباب قبل أن تبلغني المسبة التي أطلقتها.. فصطدمت السبة بالباب وسقطت على الأرض.

خدمة واحدة فقط

صديق عزيز هو ذلك الشاب المهذب من قرائي، وقد بدأ بدوره ينزوي على نفسه كدودة القز لينسج شرنقته الأدبية الأولى.. هذه لحظة آتية حتمًا لمن يأكل الكثير من ورق التوت. أقصد من يقرأ كثيرًا. في النهاية أرسل لي مجموعته القصصية مع طلب أن أكتب لها المقدمة، وهو شرف عظيم لي..

بعد قليل اتصل بي صديق آخر يطلب أن أكتب له مقدمة ديوانه الشعري. فعلت ذلك بكل سرور، وفي ذات اليوم تلقيت طلبًا لكتابة مقدمة لكتابين من المقالات القصيرة.

الآن أنظر حولي فأكتشف أنني كتبت عشرين مقدمة لكتب بعضها لم أقتنع به قط، وهذا يجعلني متحمسًا للأبد.. أنبهر بجنون بكل كلام مطبوع مهما كان، كأنني (جوتنبرج) نفسه وقد

عاد للحياة. هذا ببساطة يجعل المقدمة التي أكتبها بلا قيمة ؛ لأنني موجود في كل مكان، حتى صارت مقدمتي شيئًا يشبه علامة الترقيم الدولي ISBN يصعب أن تفتح كتابًا فلا تجدها.

لكن دعنا من الاعتذار.. هذا وارد، لكن المشكلة هي أنني أعرف ألف واحد. وكل واحد منهم لم يطلب مني سوى طلب واحد في حياته كلها.. لم يثقل علي ولم يطلب الكثير.. معنى القبول أن اكتب ألف مقدمة. إن الرفض فظاظة لا شك فيها، لكنني رفضت بعض الطلبات وكرهت نفسي وشعرت بأنني شيطان مغرور متحذلق.

نفس المشكلة تتكرر مع الحوارات الصحفية.. هناك دومًا من يتصل بي ليقول إنهم أصدروا مجلة جديدة أو كونوا جمعية أدبية جديدة، وهم يرغبون في أن يجروا حديثًا صحفيًا معي. هنا أصارحك بسر خطير هو إنني إنسان ممل جدًا وليست لدي أشياء مثيرة تثري الحوار.

هكذا يبدأ الحوار وهو معروف لأنني أجريت مثله ألف مرة: ما علاقة الطب بالأدب؟ لماذا تحب السخرية في كتاباتك؟..

لماذا لا تتجه لعالم السينما؟..

الردود هي الردود ذاتها. وفي النهاية أجد أنني قلت نفس الكلام في ألف مجلة وأنني موجود أكثر من اللازم، وأنني لو فتحت الثلاجة لوجدت حوارًا معي.. لو فتحت الموقد لوجدت حوارًا آخر..

من جديد تتكرر مشكلة أن كل واحد من هؤلاء الأصدقاء لم يرهقني بالطلبات.. هذا هو الشيء الوحيد الذي طلبه مني في حياته كلها، فكيف أرفضه؟

تذكرت حفل زفافي منذ مائتي عام.. كان الموقف شبيهًا بهذا. هناك فرق تدق الدفوف للعروسين أثناء الموكب وتتقاضى مبلغًا باهظًا. فلو أردت أن تناقش قيل لك إنها ليلة واحدة في العمر.. فهل تبخل على ليلة كهذه؟

قاعة الزفاف باهظة الثمن.. لكن لا داعي للمناقشة لأنها ليلة واحدة في العمر.. ما لم تكن عازمًا على الزواج بأكثر من واحدة، وهو ما لن يخطر ببالك طبعًا وأنت تنفق كل هذا المال..

هناك فرقة ومطرب مشروخ الصوت.. أجرهم عال جدًا..

لكن تذكر أن هذه ليلة واحدة في العمر فلهذا لا تتفق بسخاء؟

عندما انتهى الحفل، تذكرت أن هذه أشياء يحدث مرة واحدة في العمر بالنسبة لي، لكنها بالنسبة لهؤلاء القوم أسلوب حياة. أي إنهم يعيشون وسط عرسان ينفقون بسخاء لأنها مرة واحدة في العمر!

عندما يطلب كل واحد من أصدقائك طلبًا واحدًا فهو لن يتكرر، لكن هذه صارت طريقتك في الحياة وإلى الأبد.

إما أن تقبل وتتحول إلى شيء ممل يراه الناس في كل مكان لدرجة أنهم لا يلاحظونه، أو ترفض وتقبل كل الاتهامات بالنطاعة والغرور وقلة «الذوق».. هل فهمت الورطة التي يجد المرء نفسه فيها؟

و الآن أنهي هذا المقال مع الشكر، لأن هناك مقدمتين لكتابين يجب أن أفرغ منهما حالاً!

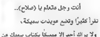

لأنك رجل متعلم

أنت رجل متعلم يا (صلاح)..

تقرأ كثيراً وتضع عوينات سميكة،

ولا يراك أحد إلا ممسكاً بكتاب سميك عن (إرهاصات ما بعد الحداثة في أدب جويس). يعرف أهل قريتك أنك ظهرت في التلفزيون مرتين، وكان المذيع يكلمك باحترام. في شارعك يعرفون أنك رجل متعلم وأنك حاصل على درجة الدكتوراه في شيء ما.

يقول الناس إن عقلك كبير، لهذا دقت تلك السيدة بابك ذلك المساء لتسألك في احترام:

-"لي أخوان.. واحد ليس من ذات الأم، وهناك بيت سوفي أبي وتركه لنا. لكنه أوصى بربع البيت لأخ ثالث ليس من نفس الأم، والأخ باع الجزء لأختي من الأم.. كيف يتم تقسيم هذا

الميراث باعتبارك رجلاً مثقفًا؟"

طبعًا لم تفهم شيئًا لذا أوصيتها بأن تسأل خبيرًا في الميراث الشرعي أو مفتيًا. لكنك لم تسترح لنظرة خيبة الأمل في عينيها وهي ترحل.

في العاشرة مساء تدق بابك تلك الجارة ومعها طفلتها التي تحولت إلى ثمرة شليك (فراولة) وحرارتها تصلح لإنضاج اللحم. تسألك في جزع عما إذا كانت هذه الحمى القرمزية أم الحصبة.. تقول لها في ذعر أن عليها أن تطلب رأي طبيب..

-"حسبتك سوف تعرف.. فأنت رجل متعلم ومثقف"

إنها تتناسى أو تنسى أن الدكتوراه التي حصلت عليها أنت كانت في علم (معاني الألفاظ) وليس في أمراض الأطفال. تغلق الباب لتكتشف أن صنبور الحمام ينزف الماء بلا انقطاع..

تطلب منك زوجتك أن تستبدل (جلدة) الصنبور، لكنك لم تفعل هذا قط ومن المستحيل أن تفعله الآن. تسألك زوجتك في شك:

-"أنت رجل متعلم وبرغم هذا لا تجيد تغيير جلدة الصنبور؟"

هذا صحيح.. لم يعلموك هذا في كلية الآداب. إنهم مهملون فعلاً.

عندما تزور قريتك يلتف حولك الفلاحون في احترام وإجلال، ويسألونك عن أفضل طريقة لتسميد الذرة، وعن طريقة مكافحة داء صدأ القمح، ويأخذك أحدهم للحقل ليقول لك في حزن:

-"هل ترى؟"

تنظر إلى الأرز الذي نما وصار في أفضل حال، فتتساءل عن المشكلة.. الأرز في حال ممتازة..

-"لكن هذا ليس أرزًا يا دكتور بل هو كرنب.. بما أنك متعلم فقد حسبتك تعرف أنواع المحاصيل.. الكرنب لا ينمو كما ينبغي.."

تطلب منه استشارة مهندس زراعي فتبدو عليه خيبة الأمل.. ليكن..

هنا يأخذك أحدهم ليعرض عليك مشكلته في تقسيم الأرض، فالحوض البحري يتداخل مع الطريق الأسفلتي ولا يمكن

حسب مساحة الأرض إلا بطرح هذا الشريط، بينما الجزء السفلي ترتفع به نسبة الأملاح فما رأيك؟.. طبعًا يصاب بذهول عندما يدرك أنك لا تفهم أي شيء على الإطلاق، ولسان حاله يقول: ما لذي يعلمونه لهم في المدارس إذن؟

عندما تعود للمدينة وتدير محرك سيارتك تجد أنه لا يدور.. تجلب الميكانيكي فيفحص السيارة ثم يأخذ رأيك:

-"هل ترى أن نقوم بتنظيف التاكيهات أم نقوم باستبدال بيك السيلنسيه؟"

-"يا أخي القرار لك.. لو كنت أعرف لفعلت بنفسي ولما طلبتك"

-"أنت رجل مثقف ومتعلم لهذا أستأنس برأيك.. أنا حرفي جاهل يعتمد على حدسه لا على العلم"

-"قم بتنظيف التاكيهات.."

-"هذه مشكلة.. إن بيك السيلنسيه في حال سيئة.. كنت أحسبك ستطلب استبداله"

يزداد الأمر سوءاً عندما يطلب موظف مخضرم رأيك في مشكلة إدارية:

-"المادة 76 من قانون العاملين تحتم وجود لجنة من أعضاء مجلس الإدارة للبت في التظلمات قبل نهاية السنة المالية، بينما تتعارض معها المادة 81 التي تمنع ذلك.. لو رتبني تمسكت بالمادة 81 سوف يكون بوسعي رفع قضية مضمونة للفوز على الوزير شخصيًا، لكن هل تضمن لي ألا يستغل المادة 117 التي تمنحه صلاحية البت في قرارات اللجان؟"

-"لا أدري.."

-"هذا غريب.. حسبت أنك ستفيدني بما أنك رجل مثقف.."

في النهاية تدرك أنك رجل مثقف لكن ما تعرفه لا يهم أحدًا على الإطلاق، ولا يصلح البتة لممارسة الحياة شديدة التعقيد. أنت كخبير مفاعلات نووية في مصنع عطور.. علمك لا قيمة له هنا ولا أحد يريده..

تصاب باكتئاب شديد حتى عندما يقصدك هذا الشاب

ليسألك عن شيء، فتقول له في حدة:

ـ"لا أعرف لا أملك أية خبرة تسمح لي بالإجابة عن هذا السؤال.."

هنا يقول الشاب في حيرة وهو يجمع أوراقه وينصرف:

ـ"كنت أريد سؤالك عن إرهاصات ما بعد الحداثة في أدب جويس غريب هذا. حسبت أن الإجابة عندك يا سيدي بما أنك رجل مثقف!".

البنسات الثلاثة

عرض علي صديقي (مراد) أن أقرأ رائعة برخت (البنسات الثلاثة) التي تعرض كثيرًا باسم (أوبرا الشحاتين)، فلم أتحمس للأمر كثيرًا. وعدته بأن أفعل لكني نسيت الوعد بعد ثلاث دقائق، وقد تكرر هذا كثيرًا.

ذات يوم اتصل بي (مراد) ليخبرني بأنه في ورطة. هناك مجموعة من الجداول يبغي تنسيقها وهو لا يجيد هذه الأعمال التي تحتاج إلى دقة. إنه أخرق ومواهبه شبه معدومة، ثم انخرط في وصلة من سباب النفس حتى كاد يبكي:

–"أنا معدوم المواهب ضعيف القدرات.. من العجزات

الحقيقية أن يظل من هو على شاكلتي حيًا حتى سن الأربعين.. "

ضحكت كثيرًا وذهبت لبيته، وجلست أشرب الشاي وأنسق هذه الجداول التي لا تنتهي. بعد قليل جاء صديق آخر اسمه (كمال).. قال لي مراد:

-"إن صديقنا (كمال) مترجم وإنجليزيته لا تختلف عن إنجليزية (تشرشل)، لذا طلبت منه أن يساعدني في ترجمة هذا النص.. تبًا لي ولإنجليزيتي.. إن الكناس الذي يكنس الشارع يجيد الإنجليزية أفضل مني.. "

وجلس كمال ممسكًا بكتاب سميك وراح يكتب الترجمة في مفكرة صغيرة. هنا نظر لي مراد متسائلاً:

-"هل خطك جميل؟.. أريد تبييض هذه الترجمة، لكن خطي قبيح جدًا.. "

اعتذرت بأن خطي سيئ؛ هكذا قرر أن يطلب معونة صديق له يدرس في مدرسة الخطوط.

بعد يومين اتصل بي مراد وسألني عن عرض تقديمي

للكمبيوتر بتحدث عن معدلات البطالة في العالم العربي، فقلت إنني لا أملك واحدًا. وطلبت منه أن يبحث في شبكة الإنترنت عن معلومات معقولة ثم يعد عرضًا تقديميًا.

-"هل يمكنك عمل ذلك؟.. أنا لا أجيد البحث في شبكة الإنترنت كما تعلم.."

هكذا جلست أمام جهاز الكمبيوتر ورحت أبحث عن معلومات عن البطالة في العالم العربي وأرسلها له. بعد قليل اتصل بي يقول:

-"وماذا عن العرض التقديمي؟.. أنا لا أجيد عمل هذه العروض."

لا بأس.. هذا صديق في ورطة وعلي أن أساعده.. جلست وأعددت له عرضًا تقديميًا لا بأس به وأرسلته له، فاتصل بي بعد دقائق ملهوفًا وقال:

-"لا أستطيع فتح الملف.. أرجو أن تعد لي العرض على أسطوانة ولسوف آتي لآخذه"

بعد نصف ساعة جاء لداري فطلب مني أن أقوم بحذف

لشريحة الثالثة والسابعة لأنهما غير مناسبتين. هنا قلت له في شك:

-"ألم تقل إنك لم تستطع فتح العرض؟."

-"بلى.. لكني أرجو أن تحذف هاتين الشريحتين"

هكذا جلست أمام جهازي وحذفت ما طلب، هنا قال لي بلهجة متوسلة:

-"الوقت ضيق وعلي أن أقدم هذا العرض غدًا.. أنت أعددت أربعين شريحة فلا تحسب أنني قادر على استيعابها.. "

قلت في غيظ:

-"لا أظنك ستطلب مني أن أقدم هذا العرض بنفسي كذلك"

-"وددت لو فعلت، لكني أطمع في أن تلخصه لي في ورقة واحدة أطالعها قبل النوم.. "

قمت بما فعل. وعرفت فيما بعد أنه اتصل بصديق له خبير في الكمبيوتر كي يجري تعديلات مهمة على العرض، كما قام بإدخال مؤثرات مبهرة وأعمدة تتحرك.. الخ..

بعد يومين اتصل بصديق لنا مهندس، وطلب منه أن يساعده في إصلاح السيارة لأن خللاً غامضًا أصابها وهو لا يفقه شيئًا في الميكانيكا. قال له إنه بلا مواهب ولا قدرات. وإنه مندهش لأنه ظل حيًا حتى هذه السن.. ضحك صديقنا المهندس وهرع يلحق به ليقضي يومًا كاملاً مع السيارة.

بينما كان المهندس يغسل يديه في الحمام أخذ مراد رأيه في صنبور المغطس الذي يخلط الماء الساخن بالبارد حتى لو لم ترد ذلك، هكذا وجد صديقنا نفسه واقفًا في المغطس ممسكًا بمفتاح في يده يحاول إصلاح الصنبور..

هنا خطر لي خاطر مفاجئ.. صديقي هذا ليس معدوم المواهب بل هو عبقري.. إنه يملك موهبة السمسار أو معول الأنفار أو منتج السينما. يعرف كيف يأخذ من كل إنسان أفضل ما فيه، وفي النهاية هو لا يدفع شيئًا سوى بعض السب لنفسه وعبارات الشكر لصاحبه. لسبب ما قررت أن أقرأ (البنسات الثلاثة) كما طلب مني مرارًا.. قرأتها فوجدتها تحكي في نهايتها كيف أن كل إنسان في الأرض جاء الدنيا ومعه ثلاثة بنسات..

بنسات الثري الثلاثة هي الفقراء. إنهم رأس ماله.. يعتصرهم ويأخذ منهم ما يشاء ليزداد ثراء.. لابد أن هذه القصة أثرت في صديقي كثيرًا. بنسات مراد الثلاثة هي نحن.. أصدقاؤه.. وهو يعرف جيدًا كيف يعتصرنا وكيف يأخذ منا كل شيء مقابل بعض عبارات الامتنان.

طريقك إلى النجاح

أعترف أن أهم تقدم حققته الطباعة في تاريخها هو سلسلة الكتب التي تعلمك كيف تنجح في الحياة. بدأ الأمر في طفولتي بكتاب (ديل كارنيجي) الشهير (دع القلق وابدأ الحياة)، ولعله أشهر الكتب غير السماوية وأكثرها توزيعًا. ثم انهالت الكتب المماثلة على رءوسنا، ومؤخرًا صارت هناك موضة اسمها (التنمية البشرية) و(البرمجة اللغوية الحركية).. لا.. (البرمجة اللغوية العصبية).. لن أستطيع أبدًا ذكر اسمها بشكل صحيح، ولهذا أكتفي بالاختصار NLP..

العالم كله مهتم بهذا الموضوع باستثنائي.. لابد أن تقابل هذا الصديق أو ذاك ذاهبًا لحضور محاضرة في هذا الشأن، أو تلقاه

ذاهبًا لإلقاء محاضرة عنها.. يسألونني: ألست مشتركًا في دورة من هذا النوع؟.. فأقول: لا.. ينظرون لي في دهشة وحيرة.. لهذا السبب أنا أسمر مجعد شعر الرأس، لي كرش وثقيل الظل.. لهذا السبب فشلت في حياتي فلم أمتلك عدة قصور في باريس ولندن.. لهذا السبب لم أتزوج (مونيكا بلوشي) أو على الأقل (أليسا).. لهذا السبب أمرض وسوف أموت.. لأنني لم أدرس هذا العلم مثلهم..

هناك كتاب شاع بين الشباب مؤخرًا ولن أذكر اسمه حتى لا تكون دعاية له، لكنهم قالوا: إن كل أسرار النجاح موجودة فيه.. قرأت عرضًا لهذا الكتاب فوجدت مؤلفته تقول: "يجب أن تجد سر النجاح في نفسك.. أنت كذلك يمكنك أن تنجح.. "

كلام جميل جدًا، لكن منذ متى لم أقرأ هذه الكلمات في كل الكتب المماثلة منذ كنت في المدرسة الابتدائية؟.. باختصار: أنا كسول جدًا ولا أبحث في نفسي بما يكفي.. لربما أجد عالم ذرة هنا أو عالمًا فلكيًا هناك.. لربما لو بحثت في فروة رأسي جيدًا لوجدت موسيقارًا عالميًا.. صدقني أنا بحثت كثيرًا جدًا في سن التاسعة عن بذور النجاح، ووقفت أمام المرآة وطلبت من أمي أن تفتش فلم تجد شيئًا..

فشلت تمامًا في أن أجد في نفسي بذور النجاح التي تحدثت عنها المؤلفة، لكن كل مؤلفي هذه القصص يصرون على أن الأمر سهل.. كل ما عليك هو أن تدرس كيف نجح الآخرون، ثم تصير مثلهم.. كل ما علي هو أن أمتلك أصابع وأذن (موتسارت) أو خلايا مخ (أينشتاين) أو براعة (أنتوني كوين) في التمثيل ، ولسوف أصير رائعًا..

كما قلت أنا أقرأ هذه الكتب منذ أربعين عامًا، فمن الذي نجح بعد قراءتها؟ للأسف لا أذكر مثالاً واضحًا.. هل هناك طبيب لامع أو مهندس موهوب أو موسيقار عبقري أو أديب شهير قال إنه مدين لهذه الكتب بما هو فيه؟.. فقط أعرف أن (ديل كارنيجي) نجح.. كتاب (العادات السبع للأشخاص الأكثر فعالية) جعل مؤلفه ستيفن كافي الملايين.. مبتكرا البرمجة العصبية اللغوية جمعا المليارات.. إذن طريقة النجاح بهذه الكتب هو أن تؤلف كتابًا وتعطي دورات عن طريقة النجاح.. هكذا تنجح فعلاً.. هؤلاء المؤلفون بحثوا عن بذور النجاح في أنفسهم ووجدوها..

هكذا قررت أن أبتكر مدرستي الخاصة للنجاح.. سوف أؤسس مدرسة اسمها (الخريطة الجينية للنجاح). وسوف أعطي محاضرات في كل أرجاء العالم العربي بسعر 300 دولار للفرد.. سوف أعلن أنني حاصل على دكتوراه من جامعة (برختسجادن) وأدعو الله أن تكون هناك جامعة في برختسجادن فعلاً. طريقتي تقضي بالتالي: 1- كل واحد يمكن أن ينجح 2- النجاح ليس هو الهدف بل النجاح هو الأسلوب 3- أقصر طريق للنجاح هو أن تكتب كتابًا عن أقصر طريق له.

هل فهمت شيئًا؟.. لا؟.. لأنك لم تتلق الدورة ولم تدفع 300 دولار، فلا تتوقع أن أشرح لك هذه الطريقة المعقدة في هذا المقال القصير. سوف يكون هناك كتاب سميك مليء بصور ملونة بها أسهم وخرائط تدفق معلومات.. الخ.. يمكنك أن تشتريه كذلك. لكن هل يوجد ملحق ثقافي لبرختسجادن في بلادنا؟!.. بما أنني منحوس فعلي أن أتأكد من أن برختسجادن لن ترفع علي قضية.. وبهذا أكون قد فشلت قبل أن أبدأ!!

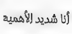

أنا شديد الأهمية

شعور طبيعي هو أن نحتاج لأن تحس الأهمية.. إنه ذلك الشعور اللذيذ بأن الكون سوف يتوقف عن الدوران من دوننا وأن الشهب ستخترق الغلاف الجوي، وأن فيضان النيل سيتوقف..

الأمهات جميعًا - كمثال - يملكن رغبة كاسحة في التدخل في كل شيء يخص أطفالهن.. لا تقبل الأم أن يمارس الابن حياة هي ليست فيها.. من دونها سوف يتحول الطفل إلى لحم مفروم تذروه الريح، أو إن كان حسن الحظ يتحول إلى سفاح أو لص.. معظم الأمهات يشعرن بضيق خفي لو سافرن وعدن فوجدن أن أبناءهن بخير.. من لا يقلن هذا صراحة، لكنك ترى لمسة خيبة أمل على وجوههن.

-"هل رتبت غرفتك وغسلت وجهك وواظبت على

الصلاة؟"

-"نعم"

عندها توشك على الجنون، وتبحث وتبحث إلى أن تجد كدمة صغيرة بحجم رأس دبوس خلف أذنه، فتصبح في انتصار لائمة الأب أو الخال أو العمة:

-"لقد آذى نفسه..!.. كنت أعرف أنك ستفسد الأمور في غيابي.. هذا الصغير لا يستطيع الحياة لحظة واحدة من دوني.. ولو لم أعد في الوقت المناسب لذهبت لأراه في العناية المركزة بالمستشفى!"

نفس الشيء ينطبق على المديرين الذين يتغيبون عن العمل لبضعة أيام، ثم يستشيطون غيظًا عندما يكتشفون أن كل شيء كان يسير بدقة الساعة في غيابهم.. هذا يثير جنونهم.. لا يرضيهم إلا أن يعودوا ليجدوا أن الخراب عم كل شيء.. إن انتظام العمل ودقته إهانتان قويتان لهم.. معنى هذا أنه لا لزوم لهم وأنهم يتقاضون رواتبهم على سبيل الصدقة.

من الأشياء الأخرى التي تثير جنوني أمثال الموقف

التالي: في عملي يكلفونني بتصميم جدول شهري بالغ التعقيد على جهاز الكمبيوتر، يستغرق مني ثلاثة أيام تقريبًا. جاء اليوم الذي ثرت فيه وتمردت وأعلنت أنني لن أصمم هذا الجدول ثانية لأن هذا ليس عملي.. قبل المدير الأمر بسهولة أثارت دهشتي.. ظللت أنتظر نتيجة هذا التمرد الذي قمت به فلم يحدث شيء.. لم يهتز العالم ولم تسقط الإدارة، ثم عرفت أن زميلاً لي كلف بهذه المهمة.. سألته عما إذا كان قد أنجزها، فقال بلا مبالاة:

-"بالطبع.. استغرق الأمر ساعتين لكن النتيجة ممتازة!"

وهكذا استمر زميلي في تصميم الجدول شهريًا بلا مشاكل من أي نوع. معنى هذا أنني كذب مدلل عندما كنت أزعم أن هذا الجدول يكلفني ما لا أطيق، أو أنا أحمق..

نعم . نحتاج أحيانًا للشعور بأننا مهمون جدًا.. فهذا هو المبرر الوحيد لنا كي ننظر في المرايا ونرى أنفسنا!

ألزايمر مصغر

في العام 1907 وصف الطبيب الألماني (آلوا ألزايمر) مرضا غريبًا يؤكد وجهة نظره في أن الجنون والنسيان مرضان كيميائيان. وصف حالة امرأة شابة لا تعاني خرف الشيخوخة لكنها بدأت تجد عسراً بالغًا في تذكر الماضي والأحداث القريبة والوجوه.. ثم صار انتقاؤها للكلمات أصعب، وصار من العسير أن تتذكر كيف تلبس ثيابها أو تغسل وجهها.. أضف لهذا بعض التصرفات الاجتماعية غير اللائقة.. وبعد موت المرأة وجد علامات مميزة للشيخوخة في المخ. هكذا عرف العلم اسم داء (ألزايمر) الذي يصر كل إنسان على أنه مصاب به، ويصر كذلك على أن (ال) في بداية الاسم أداة تعريف. لذا يقول لك في ثقة: "أنا مصاب بزهايمر شديد".

لا أعتقد أن الأمور بلغت معي هذه الشدة، فما زلت أذكر عنوان بيتي وأذكر أنني متزوج وأب (برغم أن نسيان هذا قد يكون لطيفًا أحيانًا). لكن ثمة حد هنا لا ممكن القول إن ذاكرتي على ما يرام..

مئات الأفكار تتوارد على ذهني طيلة اليوم.. تتواثب كالبرغيث بلا توقف.. بعضها رائع فعلاً.. أنتهي من هذه المكالمة الهاتفية أو تلك أو أفرغ من هذه الوجبة.. ثم أحضر مفكرتي الصغيرة وآخذ نفسًا عميقًا لأدون هذه الفكرة.. أية فكرة؟.. لقد تبخرت تمامًا.. أحاول أن استرجع الخيط بالمقلوب فلا أفلح في أن أجد الخيط ذاته..

لقد نسيت الفكرة.. أية فكرة؟.. نسيتها.. بعد نصف ساعة أنسى تمامًا أنني نسيت..

المشكلة تزداد سوءًا مع الأحلام. يبدو أنني كنت أحمل بذرة عبقري من طراز (إلياس هاو) أو (كولردج) ممن يجدون أفضل الأفكار أثناء النوم، لكني فقدت هذه البذرة للأسف في ظروف غامضة.. أصحو من نومي منبهرًا متلاحق الأنفاس وأمسك

بالقلم لأدون هذا الحلم الذي رأيته.. أي حلم؟..

عندما يتكلم صاحبي أجد تعليقات مهمة جدًا وممتعة جدًا على كلامه، لكنه للأسف ممن يثرثرون.. هكذا أصغي له في صبر.. في النهاية يسألني عن رأيي فأقول في يأس: نسيت!. طبعًا لن أحدثك عن وقفتي البلهاء في السوبر ماركت أحاول تذكر لماذا دخلته.. عشرات العمال يسألونني عما أريد فأهز رأسي. أبتاع لحمًا وجبنًا وخبزًا ومنظفات وسجائر وخضرًا ومعطر جو.. ثم أعود للبيت لتسألني زوجتي: "هل تذكرت شراء الملح كما طلبت منك؟"

هذا المقال ليس مخصصًا للسخرية، بل هو يهدف لشيء مهم جدًا.. هذا الشيء هو... هو.. نسيت طبعًا.. أكرر اعتذاري وأتمنى لك يومًا سعيدًا..

إيهام

يجلس الرجل جواري في سيارة الأجرة، والتي تقطع أحد شوارع القاهرة المزدحمة.. يمسك بشطيرة مليئة باللحم، والدهن يوشك على أن يسيل منها ليغرقنا جميعًا حتى الأعناق. يقضم منها في كفاءة يحسد عليها.

هنا يدق جرس الهاتف المحمول فيمد يده الملوثة بحذر ليلتقطه.. ثم تسمع المحادثة:

-"نعم.. نعم.. أنا في الطريق.. منذ قلت لي هذه الكلمات القاسية وأنا لا أنام ولا آكل.. أقسم أنني لم أذق طعم الزاد منذ ثلاثة أيام"

ويمسح قطرات الدهن على شفته السفلى، وينظر لي بعين نارية مهددة.. الويل لي إن اعترض. لكنني فعلاً معجب بشهية هذا الذي لا يذوق طعم الزاد.. إنه يواصل الكلام:

-أنا في الإسكندرية.. أقسم أنني في شارع صفية زغلول.. سوف أكون عندك خلال ثلاث دقائق.. لا تقلقي أبدًا..

أنظر إلى شوارع القاهرة المحيطة بنا وأتنهد.. هو رجل دقيق كذلك.. في الإسكندرية وفي شارع صفية زغلول. ترى من هي زوجة غاضبة أم شريكة عمل تطالب بمستحقاتها المالية؟.. وماذا سيقول عندما تكتشف أنه لن يكون عندها بعد ثلاث دقائق ما لم يطر في الهواء طبعًا؟

ينهي الرجل المكالمة وبلا أدنى ذرة من التردد يواصل التهام الفطيرة الدسمة. خطر لي أنه يتمتع بضمير صاف فعلاً.. كل هذا الكذب وأمام شهود يعرفون كم هو كاذب، وهو يملك صفاقة تسمح له بأن يغرس أصابعه في عيوننا لو اعترضنا..

لقد رأيت موقف الكذب على الهاتف هذا كثيرًا، وفي آخر مرة كان الفتى يكلم حبيبته على الهاتف وهو يمسك بيد حبيبته الأخرى!.. أعتقد أن الهاتف الذي ينقل صورة المتكلم سوف يجلب متاعب عديدة على أمثال محترفي الكذب هؤلاء، لكني لن اندهش لو ظهرت تقنيات كذب جديدة تناسب الموقف . سوف

تباع خلفيات جدارية تمثل شوارع الإسكندرية ليلصقها وراءه أثناء الكلام، وسوف يكون هناك ممثلون يقومون بدور باعة الكورنيش في الإسكندرية، ولربما تدخل المخرجون ليستعملوا حيل الكروما بحيث تبدو أمواج البحر حية يقظة وراء ظهره.. وسيكون هناك فنانو ماكياج يضيفون على ملامحه لمسات تجعله يبدو مرهقًا مسهدًا ناحلاً.

إن الكذب يتطور مع الزمن ليتحول إلى فن من الفنون الراقية، وعليك أن تفهم هذا قبل فوات الأوان؟

حياة ضاعت

فنانون رائعون هم أولئك الذين يقومون بتأليف ورسم مغامرات (دونالد دك) التي تنتجها شركة ديزني. ومن الغريب أن أهمهم كوبيون وليسوا أمريكيين أو أوروبيين. بالنسبة لنا معشر العرب ليس (دونالد) سوى بطوط البطة المشاغبة الغيور العصبية الظريفة. في إحدى تلك القصص التي تقترب من الأعمال الفلسفية الراقية، ينتقل بطوط لعالم مواز غريب.. في هذا العالم يكتشف كرة.. يكتشف حذاء قديمًا.. يكتشف قطة صغيرة.. كلها أشياء ضاعت منه في طفولته ولم يجدها قط. وهنا يدرك الحقيقة.. هذا العالم العجيب هو العالم الذي تختفي فيه تلك الأشياء التي ضاعت منا ولم نجدها!.. حتى الجوارب التي تضيع في الغسالة فلا تجد سوى فردة واحدة منها موجودة في هذا العالم!

تأمل روعة هذه الفكرة.. تأمل ما فيها من إمكانات

ساحرة..

عندما أفكر في وجود عالم كهذا، أتذكر على الفور أنني سأجد فيه مليونًا من الجنيهات.. كل الجنيهات التي ضاعت مني في المدرسة ولم أجدها. هناك بالتأكيد مليون قلم ومليون مسطرة.. هناك أكثر من بطاقة هوية ورخصة قيادة سيارة.. هناك جبل من المفاتيح..

هناك فتاة رقيقة حزينة العينين قالت إنها تحبني ثم اختفت للأبد.. وقيل إن أهلها هاجروا إلى أستراليا، لكنها بالنسبة لي ضاعت في ذلك العالم الذي لا يعود منه أحد..

ولذا أكون ضيق الأفق؟.. هناك جبل من الأحلام في ذلك العالم.. هناك نهر جار من القصائد التي بدأتها ثم نسيت أمرها ولم أجد الأوراق التي دونت عليها البيت الأول.. حياة كاملة ضاعت مني.. وسوف أجدها في ذلك المكان.. إن الأمر يتجاوز بكثير العثور على بعض الكرات وبعض الأقلام الضائعة.. حتى هذا المقال لقصير كتبته بشكل أفضل، ثم نسفه الكمبيوتر نسفًا.. لابد أنني سأجد المقال الأول الأفضل هناك..

وماذا عن ذلك الصبي المرح المليء بالحماسة والذي يريد أن يعرف كل شيء ويفهم كل شيء ويصير كل شيء؟.. إنه أنا.. سوف أجده هناك بالتأكيد في ذلك العالم السحري.. فقط دلوني عليه..

إنبهر مرة واحدة!

قالت لي زوجتي إنني و(مختار) طفلان يفتقران للنضج، لكني لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في استفزازه.. المشكلة هي إنك بحاجة ماسة إلى شخص ينبهر بشدة أو يصغي لتجربتك الغريبة باعتبارها تجربة غريبة. لكن الشخص الذي يؤكد دائماً أنه رأى ما هو أغرب شخص يثير الأعصاب فعلاً. لا أقرأ ألف ليلة وليلة عندما تقول شهرزاد: "وما هي بأغرب من قصة الحمال والفتيات الثلاث.. الخ" إلا وأتذكر (مختار). هذه كلمة جديرة به.

أحكي له عن السيارة التي انقلبت بي من على الجسر فسقطت فوق شاحنة، من ثم قذفها الاندفاع إلى أعلى لتصطدم بأسلاك الكهرباء، وهذه الأسلاك حملتها إلى الترعة حيث جرفتها الأمواج واصطدمت بمركب. فطارت ثانية لتستقر على

عجلاتها. فيهز رأسه في حنكة ويقول: "ما حدث لي أغرب.. لقد طارت سيارتي لتصدم طائرة وهذه الطائرة حملتها إلى بلد آخر، ثم جاء طبق طائر أعادني إلى نفس الموضع الذي كنت فيه"

أقول له إنني أحتفظ بإصبع من يد (جيفارا) فيؤكد لي أن عنده باقي اليد. هكذا أضطر إلى التمادي والمبالغة إلى درجة أنني تحولت إلى كذاب كاس النضج لا ينقصه شيء.

أنا أعرف هذا الطراز من البشر الذين أقسموا على ألا يندهشوا أبدًا أو يبدو الانبهار. إنهم يعتبرون إبداء الدهشة لقصة طريفة نوعًا من العيب المشين. إنه نفس الطراز من البشر الذين يعلمون بواطن الأمور وما لا تعلمه أنت. سوف تحكي لهم عن الغواصة الإسرائيلية التي وجدتها تحت (سلم) فيهزون الرءوس ويبتسمون في شفقة ويقولون:

-"هذا لا شيء.. أنت لا تفهم.. إن هذه الغواصات موجودة تحت كل سلم في البلاد.."

أما عندما يحكي لي شيئًا غريبًا فإنني أنسى نفسي وأنسى غريزة الانتقام. تفلت مني صيحات الدهشة وتظهر على وجهي

أمارات الذهول.

الحقيقة أنني أفكر في قتله كثيرًا.. هذا هو الحل الوحيد مع شخص لا يندهش كهذا.. شخص يشعرك بأنك طفل ساذج لم ير شيئًا بعد. وممل كذلك. لكن هؤلاء القوم يملكون هم أنفسهم نوعًا من الطفولة الواضحة، فهذا هو تفاخر الأطفال من طراز (أبي عنده دراجة بخارية وأبوك ليس عنده شيء). قلت هذا لزوجتي فقالت:

-"وكذلك الأطفال هم من يفتتنون من تفاخر الأطفال!"

لم أفهم معنى هذه العبارة الملتفة، لكنني أعرف جيدًا أنني سأغيظ (مختار) يومًا ما بمعلومة تثير دهشته وذهوله. فقط أدعو الله أن يندهش قبل أن أضطر لقتله.

فن التسخيف

خيط واه جدًا يفصل بين المعنى العميق والسخف.. من مصلحتنا جميعًا ترك هذ الخيط حيث هو، فلو انقطع لفسد الكثير. كنت أتابع باهتمام برامج قناة الجزيرة الساخنة مثل (الاتجاه المعاكس) وأنفعل مع من ينفعل وأصرخ مع من يصرخ، حتى قالت زوجتي ذات مرة في ملل:

-"هؤلاء لقوم يعانون من فراغ قاتل. لا مشاكل عندهم!.. يجلسون معًا ليبدءوا في الصراخ لمدة ساعة ثم يعود كل منهم لوطنه.."

قلت لها في حماسة إن هذا صراع أفكار ساخن من أعلى طراز، لكنها كانت مصرة على أن الواحد من هؤلاء لو كان مكلفًا بالطهي وتنظيف بيت والعناية بأطفال لما وجد وقتًا لهذا الهراء. من الغريب أن كلامها بدأ يقطع هذا الخيط الواهي، وبدأت أشعر

بالفعل أن هؤلاء قوم يأتون ليفتعلوا الصراخ، وليتسلى المشاهد بهذه المصارعة الحرة الفكرية لا أكثر.

كنت أشاهد فيلم رعب مثيرًا عندما سألني ابني عن موضوعه، فقلت في حماسة: "هناك دير لا يمارس رهبانه المسيحية، ولكنهم يدرسون عبادة الشيطان.. والبطلة راهبة جديدة لا تعرف ما يحدث". قال في ملل:

- "وما المثير في ذلك؟.. سوف تكتشف السر وتصاب بالرعب.. تحاول الهرب فيلاحقونها وفي النهاية تنجو!"

بدا لي كلامه معقولاً وبدأت أرى أن الفيلم ليس بهذه الروعة على الإطلاق. لقد نجح لوغد ببراعة في قطع الخيط الواهي فبدا الأمر على حقيقته: هراء..

لو امتلكت موهبة السخيف هذه لبدا لك أي شاعر شخصًا مدعيًا يقول كلامًا مفتعلاً لا معنى له، والزهرة التي تقدمها لحبيبتك تفاهة، وليد لك السياسيون نصابين يبيعون كلامًا.. إن رواية الحرب والسلام هي ببساطة قصة محاولة نابليون لاحتلال روسيا وفشله، بينما (شفرة دافنشي) هي شخص مات وترك بعض

الألغاز التي يتم حلها. قديمًا وصف أحدهم فيلم (الفك المفترس) بأنه فيلم تسجيلي عن صيد سمك القرش)..

موهبة التسخيف هي الطريق الأمثل للانتحار، وهي قادرة على جعل الحياة بلا معنى فعلاً. هل تذكر قصة الرجل الذي أهدى أمه ببغاء متكلمًا باهظ الثمن، ثم اتصل بها بعد أسبوع ليطمئن على الببغاء فقالت بلهجة عملية: لقد كان لذيذًا!

علينا أن نبقي هذا الخيط الرفيع ولا نقطعه كي نجد مبررًا لحياتنا. ولهذا أتوقع منك أن تجد هذا المقال ساخرًا ممتعًا وعلى شيء من العمق، بدلاً من أن تعتبره مجرد هلوسة من شخص لا يجد شيئًا أهم يفعله. هذا يحفظ السلام النفسي لنا معًا.

من أجل مزيد من الجودة

هناك وباء جديد لا يختلف عن إنفلونزا الخنازير في الفتك ولا سرعة الانتشار. وقد راح يجتاح كل هيئة وكل مؤسسة وكل هيئة علمية، وهذا الوباء اسمه (ضمن الجودة). هناك دائمًا منحة من الاتحاد الأوروبي وهناك أشخاص مهمون جدًا يتقاضى الواحد منهم في الشهر ما تتقاضاه أنت طيلة حياتك، وهناك كتيبات وهناك دورات لابد من حضورها لتنام فيها وإلا خربوا بيتك.. حتى تشعر بأن الأمر يتعلق بتجربة نوع جديد من أساليب النوم. وهناك برامج من الخارج تحمل أسماء طويلة مثل *ZEFT* و *HEBAB* وهناك تهديد دائم بأنه لا مزيد من الغداء المجاني، وأن الفرصة متاحة كي تُطرد ويجوع أطفالك.

المشكلة أنني لا أجد أثرًا لهذا على أرض الواقع. هناك ضوضاء ودخان كثيران جدًا، لكنك لا تجد أي نار ولا أي طحن. هذا الوباء له علاقة جينية بابن عم قريب له هو التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية.. كلهم جاءوا من مصدر واحد لا أعرف ما هو..

يجمعنا المدير ويقول لنا في حزم:

-"لقد انتهى زمن الغذاء المجاني.. نريد جداول تحدد مهمة كل موظف عندنا وعدد الساعات التي عملها والتي لم يعملها.. أريد جدولًا يحدد مدى تطبيق معايير الجودة في المصلحة، وربط هذا بالمعدل الحركي الاستثنائي لأيون الأوزون.. سوف نشكل لجنة.. هذه اللجنة مهمتها الأساسية تشكيل لجنة تنبثق عنها لجنة.. واللجنة الأخيرة تحدد مجموعة من الأشخاص مهمتهم مراقبة الجدول، وعمل جداول تحدد الموظفين الذين لم يتلقوا دورات في الجودة. هؤلاء سوف تقدم لهم دورات جودة ثم يتم امتحانهم.. على أن تضع الامتحان لجنة مخولة بذلك يتم ترشيحها طبقًا لمعايير ضمان الجودة. وهذه اللجنة

سوف نضع خطة لتطبيق الجودة في الأشهر القادمة، وعندما نستعد لذلك سوف نشكل لجنة تحدد الوقت المناسب لدعوة هيئة الجودة كي.. "

ثم ينقطع صوته فيشرب جرعة من الماء ويواصل الكلام:

"وهذه اللجنة سوف.. "

هنا أنظر لساعتي فأكتشف أنه نتكلم عن تطبيق الجودة منذ ثلاث ساعات.. هناك كومة من الأعمال على مكتبي، وعليه عجل، لكن لا مفر من المجيء هنا لأن الجودة لا ترحم. الخلاصة أننا قضينا اليوم كله في التخطيط للعمل حتى لم نجد ثانية واحدة نعمل فيها. نعم.. هناك أناس خلقوا للجودة وأنا لست منهم لأنني لست جيدًا بما يكفي.. كل ما أعرفه هو أن علي الاستمرار في سماع هذا الهراء حتى لا أجد نفسي في الشارع.

متحمسون

لسبب ما يقوم أي شخص يعرف اسمي وعنواني البريدي على النت بوضع اسمي ضمن قوائم مراسلات المجموعات البريدية. هذه خدمة لم أطلبها ولم يسألني أحد عن رأيي.. لكنني أتلقى كل يوم حشدًا من الخطابات من مجموعات غريبة لكنها نشطة جدًا: مجموعة مؤازرة سيد الشماشرجي.. مجموعة الألسنة اللغوية لمذهب الحداثة.. منتدى الناجين لتبادل الصور المثيرة.. وهكذا..

في كل يوم أفتح صندوق بريدي لأجد مائة خطاب لا أعرف من أرسلها ولا لماذا يرسلها لي أنا، مع مناقشة قضايا لا تهمني.. هناك خطاب أول يقول:

-"أبو الزعازيع لم يكن قط عضوًا في منظمة إيد الانفصالية"

ثم يصل رد من ذات المجموعة:

-"بالنسبة لما كتبه العضو الأحمق السابق.. أبو الزعازيع عضو مؤسس في منظمة بيتاء لكنكم احترفتم الكذب وصدفتة الأنظمة"

فيصل خطاب ثالث:

-"الرد الكامل على ادعاءات أبي الزعازيع.. نعم هو ليس عضوًا.."

ومع كل رسالة خطاب يحتاج مني لشهر من القراءة مدعمًا بالوثائق والصور.. من هو (أبو الزعازيع)؟.. لماذا هو في (إبنا) ولماذا ليس فيها؟.. من هم هؤلاء؟.. امسح.. امسح..

ما أن أنتهي من المسح حتى أجد عشرة خطابات أخرى بسرعة البرق: "أبو الزعازيع يرد بنفسه"

أقوم بمنع تلقي الخطابات بخاصية الحجب. فقط لأكتشف أن هذا غير كافٍ.. فمرسل الخطاب يتغير في كل لحظة.. هناك جملة بخط صغير غير واضح تقول إن علي إرسال خطاب للعنوان الفلاني كي لا أتلقى هذه الرسائل. أرسل خطابًا فيصلني طلب

للتأكيد هل أنت متأكد من أنك لا تريد تلقي رسائل (أبو الزعازيع)؟.. والله العظيم متأكد.. وأرسل من جديد وأنتظر..

بعد نصف ساعة تصلني عشرة خطابات أخرى.. (أبو الزعازيع ليس عميلاً لحكومة الإسكيمو).

إذن هو كابوس لن ينتهي أبدًا.. لا مفر سوى الموت أو أن أعبر عنواني البريدي.. لكن هذا ليس حلاً لأنني سأتلقى الخطابات على العنوان الجديد بعد فترة.. لا يبدو الانتحار حلاً محببًا كذلك لأنه حرام، ولن أقول في يوم لحساب إنني انتحرت فرارًا من (أبو الزعازيع)..

نعم.. من فضلك قبل أن تضم اسمي لمجموعة بريدية، عليك أن تتأكد من أنني مهتم بأن أعرف أخبارها. والنقطة الأهم هي ألا تضعني في مجموعة نشطة تملأ صندوق بريدي عشر مرات كل يوم. وبالطبع لا تضعني في مجموعة مهمتها الدفاع عن أبي الزعازيع.

أمام المدفع

أعتقد أن الطب مهنة مرعبة فعلاً.. هذا الرجل يلقي نظرة فاحصة إلى أحشائك وأجهزة جسدك، ويتبين العلامات على أنها لا تعمل جيدًا.. وقد رأيت أناسًا يمارسون حياتهم في نشاط وكفاءة، فلما عرفوا أنهم مرضوا صاروا كذلك فعلاً. وبرغم أنني طبيب فإنني ما زلت أحتفظ بمشاعر المواطن العادي تجاه زيارة الأطباء. مثلاً ما زال قلبي يرتجف عندما يفرغ طبيب الأمراض الباطنية من قياس ضغط دمي ويفك الربطة عن ساعدي، ويتقلص وجهه كأنه لا يعرف من أين يبدأ..

أشعر بكراهية مجنونة لطبيب الأسنان، عندما يتأمل فمي المفتوح وتشيع في وجهه ابتسامة معناها: "حلاوتك!".. معنى هذا أنه وجد كوارث.. لابد أن في فمي فجوة بركانية وأخدودين..

سوف يحشر المثقاب إياه الذي يحطم الأعصاب ويعمس في فمي للأبد.. رأيت فيلمًا قديمًا كان النازيون فيه يعذبون ضحاياهم بوساطة طبيب أسنان يحمل مثقبًا، وأعتقد أنه تعذيب عبقري فعلاً..

هناك كذلك طبيب العيون وهو يفحص قاع عيني ويتنفس في ثقل وصعوبة، فأتوتر وأتوقع أن يخرج ليهدي أعضاء الجمعية الأمريكية لطب العيون، ويلقي فيهم محاضرة عن حالتي. سوف يلتقط عشرات الصور لهذه الحالة النادرة التي لا علاج لها ولم يرها الطب قط، وينشر مقالاً مهمًا عنها.. ربما يطلب مني التبرع بعيني لخدمة الطب.. هذا طبعًا بعد موتي الذي صار وشيكًا..

لقد اعتدت منذ طفولتي أن أعتبر طبيب الأسنان وطبيب العيون عدوين لي، ينتظران الفرصة لتدميري، حتى إنني أوشك على الصراخ باكيًا:

-"لماذا تتحرش بي أنا بالذات؟.. سأتهمك بالاضطهاد!"

ست منهم لكني أعرف أن معظم الأطباء تقريبًا يخافون الحقن جدًا، ويخشون أن يخطئوا لأن تخترق إبرة معدنية

لحمهم..

يبدو لي أن هؤلاء يخافون الأطباء جدًا لدرجة أنهم قرروا أن يصبحوا منهم، حتى يكونوا خلف المدفع لا أمامه. سوف يعطون الخوف للآخرين بدلاً من تلقيه..

على كل حال يمنحك الطب فرصة ممتازة، هي أن تنتقم من أطباء الأسنان وأطباء العيون. أكتشف أن المريض الذي أمامي طبيب أسنان فيتقلص وجهي وأفحصه وقد بدا على القلق والتوتر، ثم أعود للمكتب وأظل صامتًا بعض الوقت وأعطي وجهي وأبعد نظراتي عنه.. هكذا يموت رعبًا وقد أدرك أنني وجدت سرطانًا من ألعن الأنواع. إنه سعيد الحظ على كل حال، فأنا لا أملك مثقابًا أحفر به فمه وبالتأكيد لن أجري له تنظيرًا قولونيًا لمجرد الانتقام.. لا أملك انتقامًا سوى أن أمنحه لحظات من القلق، وهذا ما أفعله!

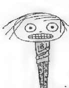

لست نحسًا ولكن..

خسر المنتخب المصري مباراته أمام المنتخب الجزائري، فسادت حالة من الغم شوارع مصر.. وعلى الفور انهمرت الاتهامات للاعبين بالتقاعس، والمدرب بالإهمال، وحارس المرمى بالغرور.. طبعًا لو فاز المنتخب لانهمك الجميع في نظم قصائد الغزل في حكمة المدرب وبراعة اللاعبين.

وعلى شاشة التلفزيون ظللت عدة ساعات أرى الخبراء يبدون رأيهم:

- "خط الوسط ضعيف ومتخاذل.."

- "الهجوم لا يملك روحًا قتالية.."

هؤلاء الخبراء كانوا لاعبي كرة في الماضي، وقد عرفنا أنهم يرتكبون ذات الأخطاء.. لم يكن أحدهم بيليه أو بوشكاش مثلاً.

لكنهم اليوم يتكلمون بحكمة بالغة مصداقًا لتعبير(اللي على الشط عوام). أفضل خبراء لعبة الشطرنج هم الذين لا يجلسون أمام الرقعة.. هذا معروف.. فإذا جلسوا صاروا لاعبين مستواهم متوسط أو أقل..

لكني على كل حال كنت أرى أنهم يضيعون وقتهم.. سبب الهزيمة معروف وهو أنني قررت أن أشاهد المباراة!. أنا أصلاً كائن غير كروي لا أعرف شيئًا عن هذه اللعبة ولا قواعدها.. لا أشاهد أية مباراة على الإطلاق، لكنني قد أتحمس في بعض المباريات الدولية فأجلس أمام التلفزيون.. هكذا يضيع فريقنا.. هذه قاعدة عامة..

ذات مرة قاومت رغبتي في مشاهدة المباراة ومشيت في الشارع لمدة ساعة ونصف، إلى أن سمعت أبواق السيارات ورأيت الشباب يرقصون، وحكوا لي عن حارس مرمانا الأسطوري ومهاجمينا البارعين وكيف أصيب لاعبو ساحل العاج بنوبات قلبية وكيف بكى (دروجبا) و.. و.. وفي مرة أخرى مشيت في الشارع ساعة ونصفًا إلا قليلاً ثم شعرت بالإرهاق فدخلت كافتيريا

بيا تلفزيون مفتوح.. ما إن جلست وطلبت كوب شاي، حتى سمعت المذيع يصرخ:

-"هدف!.. هذ هو أول هدف يدخل في مرمى مصر وفي وقت قاتل!!"

وفي خلال ثلاث دقائق طرد أهم واحد من لاعيبنا ودخل الهدف الثاني!.. كـن علي أن أرحل قبل أن يسقط نيزك على الفريق أو يصب لاعبونا بوباء إيبولا..

هكذا عرفت الحقيقة: أنا وبال على فريقنا القومي لسبب مجهول، وأفضل المباريات هي تلك التي لا أراها.. وأعتقد أنهم لو قرءوا هذه السطور لفهموا كل شيء، ولدفعوا لي مكافأة محترمة مقابل عدم مشاهدة المباريات..

لا أؤمن بالنحس، لكن هناك تفسيرًا فيزيائيًا محترمًا لما يحدث.. وأعد منتخب مصر ألا اشاهد أيه مباراة لـه لمدة عامين على الأقل إلى أن يستعيد مستواه..

فلسفة اللبن

ثمة شيء غير مفهوم في اللبن.. أنت تعرف أن له طابعًا معينًا يوحي بالطهر، وقد ارتبطت الجنة بأنهار اللبن والعسل.. الاتصال بالشياطين والعياذ بالله يتضمن استعمالا معينًا للبن لا أجرؤ على ذكره.. أي أن إهانة اللبن خرق للمقدسات.. لكني أضيف كذلك أنه سائل فلسفي..

هناك ذلك الإلهام المتدفق الذي تشعر به مع اللبن..

أنت في المطبخ . زوجتك تتكلم مع صديقتها على الهاتف.. توصيك بأن تراقب اللبن الموضوع على الموقد.. تقلبه من وقت لآخر وتهشم طبقة الدهن المتخثرة على سطحه كي تضمن خلوه من الحمى المالطية..

تتذكر الحمى المالطية.. كان لك صديق أصيب بها واستغرق

أكثر من عام كي يشفى.. بعض الأنوع تكون خطيرة فعلاً. الحمى المالطيه هي البروسيلا.. اكتشفها بروس الضابط البريطاني.. اكتشفها في جزيرة مالطة وكانت تصيب الجنود البريطانيين.. مالطة!.. كان لي صديق قضى شهر العسل في مالطة وقال إنها رائعة، برغم أن زوجته لم تكن رائعة بالقدر ذاته، وسرعان ما دب بينهما الخلاف وتم الطلاق بعد عامين..

من يدافع عن قضية خاسرة يدل إنه يؤذن في مالطة.. هل حقًا لا يوجد مسلم واحد في مالطة؟.. أنت تؤذن في مالطة عندما تكتب عن الوعي العربي.. لكنك تأمل في أن يبلغ صوتك واحدًا يأتي لثانية الآذان..

صديقك كان اسمه (صالح).. ديفيد بروس كان بريطانيًا.. بريطانيا احتلت مصر فترة طويلة لكنها لم تترك علامة ثقافية واضحة كما تركت فرنسا في تونس والجزائر.. لا يوجد بلد عربي احتله الألمان. فقط ظهر الألمان فترة قصيرة جدًا ممثلين في الفيلق الأفريقي وقائده روميل.. خطوط الإمدادات لم تتناسب مع سرعة تقدمه لذا خسر الحرب.. لابد من كتابة مقال عن هذا الموضوع..

يجب ألا يسبق طموحاتك إمكاناتك..

تهرع لتحضر ورقة وتدون عليها بعض الأفكار.. هناك فيلم جميل اسمه (فالكيري) يحكي عن مؤامرة اغتيال هتلر.. هل كان روميل في المؤامرة؟.. لابد من البحث عن هذا الجزء..

هنا تسمع صوت (طش!).. تهرع للمطبخ لتكتشف أن اللبن فار فقتل الموقد وأغرق الأرض كلها.. لم تعد منه قطرة في الإناء الساخن.. تدرك هذا وأنت تسمع صوت خطوات زوجتك قادمة عبر الصالة وهي تقول:

-"أشكرك كثيرًا.. أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بهذا الطلب!!"

أترك ما حدث بعد هذا لخيالك! .. نعم.. اللبن سائل غامض ملهم ومثير كذلك.. لا تنس أنه مصدر إلهامي بهذا المقال الذي أرجو أن يكون قد راق لك!!

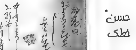

حسن خطك

سمعت في المدرسة عبارة (حسن خطك) مليون مرة على الأقل، كما كتبها المعلمون في كل كراريسي. وكان لها في أذني ذات رنين (احترم نفسك).. حاولت جاهدًا أن أسيطر على جماح القلم وأن أمشي في المسارات التي حددها أساتذة الخط العربي سلفًا لكني فشلت.. وكنت رسامًا جيدًا لهذا عرفت المعتقد الخرافي الشائع لدى الناس أن الرسام يجب أن يكون خطه رائعًا..

فيما بعد بدأت أكتب بالحروف اللاتينية، فاكتشفت أنها أسوأ وأقبح من حروفي العربية، حتى شبهها صديق لي بأنها صراصير تحرك شواربها، وأنه لو رش أحدهم الورقة بمبيد حشري لصارت بيضاء من غير سوء..

لم أشعر قط أن خطي بهذا السوء، لكني قدرت أن الأمة لا

تجمع على باطل، فما دام كل هؤلاء أجمعوا على سوء خطي فعلي الاعتراف بهذا..

إنه طفولي سانج لا يلتزم بالسطر أبدًا، ويجمع بين حروف الرقعة والنسخ في كلمة واحدة.. واضح وضوحًا مهينًا..

كاد الأمر يمر على خير لولا أنني عملت بمهنة الكتابة، وصار علي أن أقدم للمطبعة هذا الخط مرارًا فأتلقى ابتسامات السخرية من العاملين، أو يقول لي أحدهم: "الموهوبون خطهم سيئ دائمًا!.."

ازداد الأمر سوءًا عندما وجدت أنني غير قادر على قراءة ما أكتبه أحيانًا..

خفف من ألمي نوعًا معرفتي أن عباس محمود العقاد كان خطه رديئًا، وكان يحرص على ألا يراه أحد لذا كان يرسل كتبه في مظاريف مغلقة، وكان يكتب بقلم أحمر مميز.. هناك آخرون اشتهروا بالخطوط الرديئة، وفي عالم الغرب رأيت صفحات بخط (هيرمان ملفيل) فحسبته يرسم لا يكتب..

ثم ظهر الكمبيوتر، وهكذا انتهت علاقتي بالورقة المكتوبة للأبد.. كل شيء صرت أكتبه على الكمبيوتر حتى لو كان حساب البقال.. الخواطر أكتبها على الكمبيوتر.. كل شيء..

بعد عشر سنوات من استعمال الكمبيوتر أدركت في رعب أنني صرت غير قادر على الكتابة على الإطلاق. ولهذا أرى نظرة دهشة في حفلات التوقيع عندما يأخذ أحد القراء كتابه موقعًا.. طبعًا من الصعب أن آخذ كل الكتب لأضعها في الطابعة..

نصيحتي الوحيدة لكل من يرغب في احتراف الكتابة، هي أن يمضي بعض الوقت في مدرسة خطوط. هذا سيعفيه من حرج كثير في الغد، خاصة لو قال له أحد الناشرين: حسن خطك!

المتذاكيات

منذ نعومة أظفاري أعرف هؤلاء المتذاكين، الذين يرون ويفهمون ما لا نراه نحن..

الفتيات من أهم أعضاء نادي المتذاكين، وأعتقد أن للمجلات النسائية دورًا في هذا.. فالفتاة تمضي وقتها في قراءة تلك المجلات.. وتكون ثقافتها من معلومات على غرار: "عالمة أمريكية تؤكد أن الرجل الذي يعبث في أذنه كثيرًا بخيل.." .. "الرجل الذي يلبس سروالاً أحمر مصاب بالبارانويا". طبعاً رأيي في الرجل الذي يلبس سروالاً أحمر مختلف تمامًا، لكن لا يمكنك عمل قواعد علمية اعتمادًا على هذا السخف.. إنه مجرد أسلوب لملء الصفحات لا أكثر..

الويل كل الويل لك لو تقدمت لفتاة من هذا الطراز.. إنها فرصة الفتاة الأخيرة والوحيدة كي تجلس في موضع القاضي،

وتصدر أحكامها وتقرر.. أمامي شاب يحاول الظفر برضاها وهي تمتحنه.

سوف يضع يده على خده الأيمن.. آآه !. لقد قرأت في مجلة (سيدتي) أن هذا دليل على أنه كذاب.. الرجل الكذاب لا يشقى أبدًا..

سوف يفرك أنفه.. هذك عالم ألماني قال إن هذا دليل على عدم الصراحة. أما لو كان يضع ساقًا على ساق فهو مصاب بعقدة (أوديب).. آسفة.. لا أطيق الرجل (ابن أمه) أبدًا

صديق من أصدقائي تقدم ذات مرة لفتاة من هذا الطراز، فسألته في تحد عن رأيه في الحياة الزوجية ودور الزوجين فيها، وكانت تهز رأسها موافقة أو معترضة على ما يقول كأنها ممتحن في لجنة شفوية.. لسان حالها يقول: ليست هذه هي الإجابة التي أنتظرها منك..

ثم تكلم أبوه المستشار الوقور المسن فصمت صاحبنا، هنا وجدت الدليل الأكيد على أن صاحبي إمعة ضعيف الشخصية لا يستطيع مواجهة أبيه.. العريس المثالي في رأيها هو الذي يصيح

في أبيه: "اصمت!.. عندما يتكلم الكبار لا تتدخل!"

على كل حال تعلمتُ أن الفتيات المذكيات من هذا الطراز يرفضن ويرفضن.. وفي النهاية تكتشف الفتاة أنها تقدمت في العمر جدًا، وأنه من الصعب أن يظهر في حياتها من يخرس أباه أو لا يتحسس أنفه أو يضع يده على خده الأيمن، لهذا توافق على أول طارق، وهو غالبًا رجل كذاب غير صريح بخبث ابن أمه وضعيف الشخصية أمام أبيه لكنه يصلح على كل حال.. وتجلس في الكوشة تتثنى الصعداء. لقد كانت تلك المجلات النسائية بمن فيها من خبيرات أمريكيات تضيع عمرها كله!

مكالمة واحدة فقط

لسنا والحمد لله من مدمني الفضائيات. وباستثناء بعض القنوات الإخبارية وقناة للرسوم المتحركة، يصعب أن ترى على شاشتنا أي برنامج آخر.. حتى يوم الاثنين الماضي..!

ابنتي ذات السنوات التسع تقلب البرامج على شاشة التلفزيون الصغير الموجود في غرفتها، وهنا تجد تلك الذبيحة الملطخة بالأصبغ، المجنونة تقريبًا تصيح:

-"لم يعرف أحد بعد صاحبة هذين العينين!.. نحن في الانتظار!!"

مع أرقام هاتف عديدة لمن شاء الاتصال لحل المسابقة. هناك أرقام في مصر وكل دولة عربية أخرى.. وطبعًا هذان العينان

هما عينا (هيفاء وهبي).. أي مجنون بمكنه أن يعرف أنهما عينا (هيفاء وهبي).. لكن أحد المشاهدين يتصل:

-"هاتان عينا (سعاد حسني).. "

تصيح المذيعة في حسرة:

-"لا والله.. تخسر ثلاثة آلاف دولار!"

ليس لدى ابنتي جهاز جوال، لذا تهرع لغرفتي تتوسل لي في حرارة.. المسابقة سهلة والحس بسيط والمتسابقون أغبياء.. أتوسل لك يا أبي.. مكالمة واحدة فقط أقول لها في صرامة إنني لا أسمع بهذا الكلام الفارغ.. تنظر لي في كراهية ثم تهرع تتوسل إلى أمها تلين زوجتي مع التوسل والضغط والدموع فتناولها الجوال الخاص بها، وهكذا يحدث السيناريو الذي توقعته.. مرحبًا بك.. نرجو الانتظار.. مقطوعة موسيقية طويلة جدًا.. نرجو الانتظار.. ثم: شكرًا.. لقد تم تسجيل اسمكم.. في النهاية انتهى رصيد الجوال وصار صفرًا..

على الشاشة يتوالى الأغبياء: هاتان عينا (محمود

الليجي).. هاتن عينا (جيفارا).. وابنتي موشكة على الجنون.
في النهاية تتوس لي دامعة كي نكرر الاتصال، فعطيب جهـزي وأنا موشك على الانفجار.. تجـرب ثانية فيحـدث كـل شيء مـن جديد، وما تنجح فيه هو تحويل رصيدي إلى صفر..

نامت في النهاية مرهقة دامعـة، وفي اليـوم الثـاني صحـت مبكرًا جدًا وجلست أمام الشاشة وأقنعت أمها ان تعيـد شـحن رصيده وهذه المرة كانت المذيعة البلهاء تعرض عيني (أليسا). العريب أن زوجتي بدأت تقتنع أن هذا البرنامج جميل ومفيد وأن فرصة الفوز قريبة جدًا لو صبرنا. مشكلتي هي أنني عجـول ضيـق الخلق.. نظرت لعيني ابنتي وعيني زوجـتي اللامعتين اللـيثتين بالحمـاسة.. مبروك!.. لقد تحولتا إلى مقامرتين بالفعل.. هـذا المشهد هـو ذات المشـهد الـذي قرأتـه في روايـة (المقـامر) لدستويفسكي، لكنه قمار بلا أوراق لعب ولا عجلة دوارة.. قمار خفي جدًا وأنيق جدًا..

هكذا انتهزت فرصة غيابهما بعض الوقت، وقمت بتشفير قناة القمار تلك.. هكذا أقنعت ابنتي أن القمر الصناعي قد تلف

وإن كنت انتظر في رعب أي تحد قناة أخرى، وأن تطلسي بمكالمه واحدة فقط.

حتى ذلك الحين أرجو أن نسمي الأشياء بأسمائها.. هذه ليست قنوات ترفيهية.. هذا قمار.. والله العظيم قمار!!!

تليباثي

تقول زوجتي في فخر:

-"أنا وأفراد أسرتي نملك الكثير من التواصل الفكري.. نشعر بأرواح بعضنا مهما بعدت المسافات والأيام.. هذا لأننا أسرة مترابطة فعلاً"

انبهرت بهذه الدرجة الخارقة من الترابط الأسري.. معنى هذا أنني في أسرتي كنت منبوذًا وكذ مجموعة من الذئاب المتصارعة. ما أن زوجتي إن تنهض في الصباح قلقة متعكرة المزاج، وتقول إنها تشعر أن أختها المقيمة في الخارج ليست على ما يرام.. تتصل بها في أقرب فرصة.

-"شعرت بأنك لست بخير.. "

بالطبع تكتشف الأخت على الفور أنها كذلك، وتبدأ في التفسير:

-"نوبة انفلونزا قوية.. كاد الصداع يقتلني.. "

هنا تضع زوجتي السماعة وتقول في انتصار :

-"هل ترى؟.. تليباثي.. اتصال فكري وروحي كامل بيننا"

انبهر بشدة بهذا.. خاصة عندما يتصل بنا أخوها بعد يومين ليقول إنه قلق على زوجتي.. هذه المرة أنا متأكد أنها بخير، لكنها تتذكر أنها تعثرت على الدرج منذ أيام وكادت تسقط. يا للشفافية!.. فعلاً هم على اتصال روحي كامل..

أصيبت حماتي بورم في المبيض، وقد رأى الجراح أنه قد يكون خبيثًا لذا علينا أن نعامله بعناية. طلبت مني زوجتي أن أكتم الخبر حتى لا يعرف أي واحد من أخوتها

أجرت حماتي جراحة ناجحة، وتبين أن الورم حميد والحمد لله.. فقط تذكرت أن أحدًا من أولادها لم يتصل من الخارج طيلة الأسبوع.. قلت لزوجتي:

-"من الواضح أن التليباثي كان في إجازة هذا الأسبوع.. والدتك كانت في خطر داهم فلم يشعر أحد بقلق ولم يتصل أحد بينما تتصلون ببعض لمجرد سوء الهضم.. "

قالت في حماسة:

-"لأن اليوم حميد.. أدركنا هذا على الفور فلم يقلق أحد"

مصائب كثيرة انهالت علينا مؤخرًا، منها حمى طويلة أصابت زوجتي، ثم أصيبت أمها بداء السكري. كادت ساق زوجتي تتهشم عندما تعثرت في الشارع.. تشاجرنا مرات لا حصر لها..

كل هذا ولم يتصل أي واحد من الأشخاص الحساسين مرة واحدة.. قلت لزوجتي هذا فكان رأيها أن السبب أنه لا توجد مشكلة خطيرة حقًا..

من جديد تحسنت الأمور، ونالت زوجتي ترقية في العمل.. واستردت حماتي صحتها، وجلسنا نحتفل جميعًا كأسرة سعيدة هانئة، هنا دق جرس الهاتف الطويل القادم من الخارج.. كان هذا أخا زوجتي يسألها بصوت مرتجف:

-"وجهك لا يفارق أحلامي.. أراك تبكين وتتعذبين.. لا تخفي عني شيئًا.. أعرف أنك في مشكلة حقيقية.."

ابتلعت زوجتي قطعة لتورتة التي في طبقها، ورشفت رشفة من العصير ثم فكرت وقالت:

-"لا أعتقد أن هناك مشكلة.. ولكن.. لحظة.. تذكرت.. لقد أغلقت باب الحمام على إصبعي أمس.. أنت فعلاً شديد الحساسية.. سلمت لي وسلم حسك المرهف!"

كدت أذكرها أنها منذ أسبوعين كانت مريضة لدرجة الاحتضار ولم يشعر أخوها بشيء، بل إنه اتصل بها فردت عليه بصوت مبحوح متقطع وهي لا تكف عن السعال لحظة، لكنه لم يلحظ أي شيء غريب.. لكنها كانت منتشية جدًا لأن أسرتها تملك هذه الحساسية الشديدة، وقد وضعت لسماعة وقالت لي:

-"التليباثي.. هذا يفسر كل شيء.. تمنيت دومًا لو أنك نشأت مثلي في أسرة يحب أفرادها بعضهم بهذا القدر.. هذه نعمة لا يمكنك أن تتصورها..

ذات القانون!

تطبيق ذات القوانين على الطرفين أمر بديهي، لكنه عسير جدًا. كلنا نردد طيلة اليوم تعبير (المعايير المزدوجة) لكننا نمارسها بلا توقف. كم مظاهرة خرجت مطالبة بمنع المذابح في الكونغو منذ أعوام؟ فعلها العالم الغربي لكن أحدًا في العالم العربي لم يفعلها. لكننا نعجب بالغربيين جدًا عندما يخرجون في مظاهرات من أجل غزة..

أتضايق جدًا عندما يلح علي صديق طالبًا استرجاع كتاب له، لكني كذلك أتضايق عندما يحتفظ صديق آخر بكتاب اقترضه ولا يرده لي. زوجتي تتضايق جدًا من زوجة أخيها التي تكلمه بصوت عال وبلا احترام، لكنها تقول لي هذا بصوت عال جدًا!. أمي ترى أن زوجتي لا تخدمني كما يجب، لكنها في الوقت ذاته تغتاظ من زوج ابنتها الذي يطلب ابنتها بأن ترعاه كما يجب.. وهكذا....

عندما تضيء كشفات سيارتك بقوة فلكي ترى الطريق، بينما يضيء الآخرون كشفات سياراتهم بقوة في عينك لأنهم وقحون معدومو اللياقة..

من القصص الطريفة فعلاً التي تذكرني بهذا الموضوع قصة حقيقية عن طالب جامعة أمريكي، قرأ بعناية لوائح الجامعة منذ 150 عامًا. هكذا دخل لجنة الامتحان واستدعى المراقبين وطلب بثبات كوبًا عملاقًا من البيرة!

طبعًا ذهل المراقبون لهذا الطلب المستحيل.. بيرة في لجنة امتحان؟.. لكن الطالب قال إنه قرأ اللائحة التي عمرها 150 عامًا وهي تنص بوضوح على أن من حق الطالب شرب كوب بيرة كبير في لجنة الامتحان.. وهو كذلك يهدد بأن يرفع قضية على الجامعة لمخالفة اللوائح..

هكذا اجتمع إداريو الجامعة لدراسة الموقف.. وماذا لو طلب الجميع ذات الشيء؟.. مستحيل. هكذا طلبوا اللائحة اللعينة لدراستها.. وفي النهاية وجدوا حلاً عبقريًا لهذه المشكلة..

لقد طردوا الطالب من اللجنة لأنه لا يحمل سيفًا، بينما

اللائحة تنص على طرد أي طالب لا يحمل السيف لأن هذه علامة على عدم الاحترام!..

هكذا عومل الطالب بنفس القانون الذي تمسك بتطبيقه، وهو عقاب عادل كما ترى!. يجب على من يطلب تطبيق القانون أن يقبل تطبيقه على نفسه أولاً، ويبدو أن هذه البديهية غائبة عن الجميع ممن يدخلون لجان الامتحان من دون سيف.

النــذل

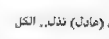

إن (عادل) نذل.. الكل يقول هذا عنه.. أمه وأخته وأخوه.. كلهم يعرفون أنه نذل وصاحب مصلحة وأنك متى احتجت له لم تجده. يحاول (عادل) أن يزيل هذا الانطباع ويبذل مجهودات عنيفة، لكنه لا يظفر إلا بعبارة: "برغم أنه نذل فمن الغريب أنه مفيد أحيانًا.. "

أصيب أخوه في حادث مروع، ونقل إلى المستشفى.. خلال خمس دقائق كان (عادل) هناك.. لم تأت زوجة (عادل) إلا في اليوم التالي، وكذا لم تأت أم (عادل) ولا أخته، وحينما احتاج الأطباء إلى دم تبرع (عادل) على الفور لأخيه..

في اليوم التالي جاءت بقية الأسرة، وكان رأيهم إن (عادل) نذل لكنه يتصرف كالرجال أحيانًا، وتصرفه هذا هو الاستثناء الذي يؤكد قاعدة نذالته.. صحيح أن أخته من ذات

قضية الدم لكنها رفضت التبرع بقطرة دم واحدة لأخيها لأن لديها أسرتها، وهي بحاجة لتوتها. قالت للأطباء: "لم لا تأخذون المزيد من دم ذلك النذل (عادل)؟"

قالوا لها إن هذا ببساطة سيقتله، فقالت: "على الأقل سنتقص عدد الأنذال واحدًا.."

عندما شبت النار في بيت أخته، سكب (عادل) على نفسه دلوًا من الماء ثم اقتحم النيران، ووسط الدخان خرج يحمل ابنتي أخته تسعلان. هنأه الزوج الذي وقف في الخارج ضاحكًا وقال:

-غريب أن يصدر هذا التصرف ممن هو مثلك، لكن قد تسبق المرجاء!

ثم تقسيم الميراث كما تعلم في حياة أمه، فتبين أن المرأة المسنة تركت كل شيء لأخته وأخيه لأن (عادل) نذل ولا يستحق مالها، بينما أخواه كريمان شهمان..

لم يقل (عادل) شيئًا، وعندما ماتت الأم بعد ذلك ملأ الدنيا صراخًا وبكاء وأصيب اكتئاب شديد. قال أخوه مفسرًا وهو يلتهم قطعة كبيرة من اللحم: "السبب أنه نذل، وضميره يؤنبه

على ما فعله مع أمه"

هنا احضرت قطعة لحم كبيرة في حلقه فازرق لونه وراح يجاهد طلبًا للتنفس، هنا وثب (عادل) فوق المنضدة والتف وراء أخيه، وأحاط بطنه بيديه وضغط بقوة كما تقضي مناورة (هايمليخ) الشهيرة، من ثم اندفعت قطعة اللحم خارجة..

قالت الأخت في استحسان:

-"لا بأس.. حتى الأنذال يظهرون بعض الشهامة أحيانًا"

(عادل) صديقي، وأنا اكرهه لأنه نذل.. صحيح أنني أقترض منه مالاً بلا توقف، وأكلفه بالأمور الصعبة الشاقة مثل تبديل إطار السيارة والشجار في الدوائر الحكومية، لكنني لن أنسى حقيقة أنه نذل وأننا جميعًا أكرم منه، صحيح أنه مواظب على الصلاة، لكني أعرف أنني أفضل منه في كل شيء، وفي المرات القليلة التي أصلي فيها أحمد الله على أنه لم يخلقني نذلاً مثله.

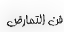

فن التمارض

يصعب على الرجل العادي أن يصدق أن المرض شيء محبب وينقذ من أعقد المواقف، وأن هناك أناسًا تتمنى أن تمرض بشدة.. تقول له هذا، فيضحك في سخرية ويقول:

-"يا أخي.. هل تتصور أن إنسانًا يريد أن يمرض بكامل إرادته؟"

الإجابة هي (نعم) وبقوة.. لكن بالطبع يتمنى الإنسان أن يمرض بمرض بسيط سهل مثل الزكام، فلا يوجد من يتمنى أن يصاب بالسرطان أو الفشل الكلوي على قدر علمي..

هناك من الناس من يضعك تحت انطباع دائم أنه مريض للأبد. لا تعرف هو مريض بأي شيء بالضبط. المهم أنه مريض وعليك ألا تتعبه ولا تجادله كثيرًا، حتى لو صفعك على وجهك أو

مد يده فأخرج ما معك من نقود. هناك من يتابع البرامج الطبية ويقول مع كل مقطع: هذا أنا بالضبط!. تذكره أن المتكلم في التلفزيون يناقش مرض سرطان القولون الناتج عن مرض الإيدز، فيكرر: أنا بالضبط! !

هناك نوع ثالث من هؤلاء المرضى، وهم من يجيدون الادعاء المركب.. بمعنى أنه لا يتظاهر فقط بأنه مريض، بل يتظاهر كذلك بأنه مريض يخفي مرضه حتى لا يقلق الآخرون!.. هكذا يقضي وقته في أداء تمثيلي مذهل.. يرسم الألم على وجهه ثم يخفيه لأن الآخرين يرونه. وينظر لك نظرات جانبية ويسبل عينيه بمعنى (لا تدعهم يعرفوا!)..

ولكن ما جدوى ادعاء المرض؟..

أولاً هو يجعل المرء يظفر بالشفقة والعناية الزائدة.. ثانيًا هو يضفي عليه لمسة استشهاد لا شك فيها.. إنه رجل نبيل يتحامل على نفسه ويخفي آلامه عن الناس.. ثالثًا هو يرفع عنه المسئوليات، من منطق أنه ليس على المريض حرج..

يجيد هذا النوع من المرضى انتقاء ضحاياهم جيدًا. مثلاً

الأم المسنة «لني أعرف انها سليمة تمامًا وأن ابنها مريض بكل أمراض العالم، وبرغم هذا هي لا تكف عن الأنين والتوجع. عندما أخبر ابنها أنها سليمة تمامًا يتوحش ويصر على انني لا أفهم شيئًا.. ألا تراها تتوجع؟.. أقنعه بلا جدوى أن الصراخ ليس دليلاً على شدة المرض.. النتيجة هي أنه لا ينام ويقضي أيامه متوترًا حتى يموت. فتبدأ هي في البكاء عليه..

على أنني في كل مرة أحاول فيها أن ألعب ذات اللعبة وأدعي السقم قليلاً، يكتشف أمري سريعًا، ويحضرون لي طبيبًا بارعًا يفحصني بعناية ثم يؤكد أنني أتمارض لا أكثر.. أو يصف لي حقنًا عملاقة من النوع الذي يحرق ويلهب ويدمي ويؤلم.. ويصر على أن آخذ حقنتين يوميًا منها. الخلاصة أن التمارض فن معقد لا أجيده ولا يمكن تعلمه، ولهذا أفضل أن اظل صامتًا مهما اشتد بي المرض.

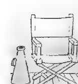

لأنني لا أفهم

لي تعاملات كثيرة جدًا

مع المخرجين التلفزيونيين

والسينمائيين لإعداد نصوص لي في صيغة درامية. أقول إن لي تعاملات كثيرة لكن شيئًا لم يخرج للنور تقريبًا أو قط.

هناك أسباب عديدة لهذا، لكن أهمها في رأيي هو إصرار المخرجين على أن السينما عالم معقد متشابك، وإنني لا أعرف عنه شيئًا. السبب الثاني إصرار المخرج على أنه مبدع وليس مجرد موصل لأفكار الآخرين.. لابد من لمسة يضيفها..

أقبل هذا في تواضع؛ ونجلس لقراءة العمل في مقهى وسط البلد، فأقترح أن يكون مشهد فلاش باك تستعيد فيه البطلة ما حدث لها أمس، هنا ينفث المخرج دخان سيجارته في وجهي ويقول:

-"أنت تقرأ الكثير عن السينما، لكن دعني أؤكد لك أن التنفيذ يختلف كثيرًا.. عليك أن تنسى كل ما قرأته من كلام نظري.."

أبتلع ريقي، وأقترح أن تكون هناك لقطة للبطلة وحدها في غرفتها تفكر، فيصيح:

-"صعوبات انتاجية!.. أنت لا تدرك مدى صعوبات الإنتاجية في مشهد كهذا!"

أقترح ألا تفكر البطلة، لكنه مصر على أن هذا يكلف الكثير من المال.. أقترح عليه ألا تجلس البطلة في غرفتها بل في الشارع، فيقول في ضيق:

-"هذا يتطلب مئات التصاريح للتصوير في الشارع!"

أما عن النص نفسه فلابد من التدخل.. في رأيي أن القصة متكاملة، لكنه يرى أنها غير مناسبة سينمائيًا.. هناك شخصية مهمة اسمها (عفاف).. لابد من حذف (عفاف) هذه.. ليكن. تحذف (عفاف).. يصر على إدخال شخصية اسمها (هدى) وشرير اسمه (عباس).. الرؤيا الدرامية تحتاج إلى هذا. البطل

والبطلة يهربن في شبكة مترو الأنفاق.. يرى هو أن هذا المشهد غير مناسب سينمائيًا..

-"أنت لا تفهم هذه الأشياء.. سوف نجعل البطل و(هدى) يهربان عبر شبكة الترام.. "

-" ومعهما الميكروفيلم طبعًا؟"

-"الميكروفيلم ليس جميلاً سينمائيًا.. سوف نجعل ما يهربان به تمثالاً فرعونيًا عتيقًا.. "

وهكذا يتدخل في كل شيء ويعبر كل شيء.. كل شيء معقد وصعب وأنا لا أفهمه..

في النهاية أكتشف أن ما صار له العمل هو عمل جديد تمامًا لا علاقة له بما كتبته، لدرجة أنه يوحي لي بقصة جديدة مثيرة!

إنهم محترفون حقًا.. وأنا الذي ظننت أنه يتدخل لمجرد الحاجة الطفولية للظهور، وأن يشعر بأن التأليف لعبة أطفال يستطيع أي واحد أن يقوم بها.. النتيجة هي أن العمل يتغير بالكامل، والأهم أنه لا يجد طريقه للشاشة أبدًا، فإذا اتصلت

بالمخرج أسأله عن سبب تعثر المشروع، قال لي:

ـ"المنتجون غير راضين عن هذا المسخ.. مطاردة عبر شبكة الترام وتمثال فرعوني مسروق!.. المشكلة هي ن المؤلفين لا يفقهون أي شيء عن فن السينما. هذه هي الحقيقة المؤسفة!"

كتاب معين

في طفولتي كنت ألعب في مكتبة أبي العملاقة، وخطر لي أن أبحث وراء أحد الأرفف. وجدت حزمة من الأوراق وضعت في كيس من البلاستيك.. أوراق عتيقة قديمة متآكلة مصفرة، فتلبستني روح المغامرة وتخيلت أنني وجدت خارطة كنز من العصر العباسي..

كانت الأوراق تحمل غلافًا كتب عليه بخط متشابك جميل (ألف ليلة وليلة). رحت أقلب الأوراق غير عالم أن هذه نسخة قديمة جدًا غير مراقبة وغير مهذبة من ألف ليلة وليلة. ولما كان أبي يرحمه الله مثقفًا محترمًا وليس من الطراز الذي قد يجول بخاطرك، فإنني أعرف سبب احتفاظه بهذه النسخة وعدم تدميرها: أنها مخطوط ثمين ونادر لم يجرؤ على التخلص منه.

حاولت قراءة المكتوب فلم أفهم الكثير لحسن الحظ، لكني

قدرت أن هذا أثر مهم ربما يعود للعصر العباسي كما توقعت فعلاً. هكذا حملت الكيس بما فيه، وأخفيته في نلب المجوة في فراشي تحت الألواح الخشبية. الشيء الثاني الذي تأكدت منه هو أنني سأعاقب بقسوة على هذا الفضول الزائد والتدخل فيما لا يعنيني.. الصمت أفضل سياسة إذن..

جلست في براءة أقرأ مجلات الأطفال، ومر عمان قبل أن أحد أبي ينقب في قلق وتوتر عن شيء ما في غرفة المكتب.. بالطبع لبست قائمة المشتبه فيهم طويلة. هكذا راح ينظر لي.. يوشك على لكلام ثم يفضل الصمت.. إنه يعرف. يرى الإجابة في عيني لكن كيف يسأل؟

يقول لي:

-"هل وجدت شيئًا في مكتبي؟"

فأقول في براءة:

-"وجدت أشياء كثيرة.. عن أيها تتكلم؟"

-"هناك كتاب.. كتاب معين"

ـ"المكتبة مليئة بالكتب المعينة وإلا فلماذا يسمونه مكتبة؟"

عندما كبرت وتزوجت حرصت على أن أحتفظ بفراشي القديم على سبيل الذكرى. اليوم بعد كل هذه الأعوام تذكرت هذه القصة.. فرحت أعبث في الفجوة بين الألواح فلم أجد ذلك الكيس مما فيه. لا يوجد متهمون كثيرون.. إن ابني المراهق ينام على هذا الفراش كثيرًا.. لكن كيف أسأله؟.. هل وجدت شيئًا في الفراش؟.. شيئًا مثل ماذا؟.. ما الذي يمكن أن يجده أي إنسان في فراش قديم؟. سوف يقولها ببراءة وسوف أصمت.وأكتم غيظي حتى أموت بالفالج.. هل هناك من حل آخر؟

والنصيحة الأخلاقية لهذه القصة هي: عندما تسرق فعليك أن تسرق شيئًا لا يجرؤ صاحبه على الإبلاغ عنه مهما حدث!

(الفهرس)

* * *

د. أحمد خالد
توفيق

صدرت له عدة
طبعات، عن دار ليلى،
من الكتب التالية:

قوس قزح
قصة تكملها أنت
عقل بلا جسد
الغرفة 207
حظك اليوم
الآن أفهم
زغازيغ
فقاقيع
E.S.P
الآن نفتح الصندوق 1
الآن نفتح الصندوق 2
وسلسلة: www

صدر منها:
• المحادثة
•• الحد الآخر
••• غرباء الأضواء
•••• [illegible]
••••• التلصص

هذه مقالات ساخرة قصيرة لا تبغي سوى جعلك تبتسم، بعدها تنفجر كالفقاقيع وتبلل أرنبة أنفك لثوان، لهذا نقدم جائزة قيمة لأي شخص يتذكر مقالاً واحداً من هذا الكتاب بعد ثلاث دقائق من قراءته!